



ا مهورية ا زائرية الد قراطية الشعبية

وزارة التعليم العا والبحث العلمي

جامعــة الدكتور الطاهر مولاي -سعيدة-

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدا ا



التجربة النثرية عند ابن زيدون

-الرسالة ا زلية أ وذجاً-

مذكرة رج لنيل شهادة ليسانس (ل.م.د)

صص: دراسات أدبية

من إعداد الطلبة:



- مباركي عبد العزيز
- بلعكرمي أم ا

ت إشراف الأستاذ:



- بن سعيد كر .

السنة ا امعية

2016/2015

بسم الله الرحمن الرحيم

دعاء

بسم ا الر ن الرحيم

سبحان ا وا مد عدد خلقه ورضى نفسه وزينة عرشه وم اد كلماته ا مد دا كث ا مبارك.

ا مد الذي لا إله إلا هو ا ي القيوم.

ا مد الذي يسمع دبيب النملة السوداء ت الصخرة الصماء الليلة الظلماء.

ا مد الذي ع وى يونس بطن ا وت و اه.

ا مد الذي ع شكوى أيوب إذ ناداه فكشف عنه الوسب و اه ورحم إ اعيل وفداه.

ا مد لك يا من خلقتن فحسنت خلقي ورزقتن ا لم والعلم والعقل والنجاح.

أفضل الصلاة والسلام على يع أنبياء ا ورسله وعلى خا هم خ الأنام مد الن والإمام ونور الإسلام صلى ا عليه وسلم.

خ الصلاة والسلام على ا ظلل بالغمام مد الن والفارس ا مام ا ادي للإسلام وعلى أصحابه الأخيار والركع السجود الأبرار والتابع الصغار منهم الكبار التقاة الأحرار إ يوم ما منه فرار.

كلمة شكر وعرفان

الشكر الأول والأخ إ رب العشر العظيم

نتقدم زيل الشكر إ من ساعدنا إ از هذه ا ذكرة

وخاصة الأستاذ ا ترم «بن سعيد كر » وذلك بفضل نصائحه وتوجيهاته وإشرافه ا تميز الذي رافقنا طيلة ثنا.

وإ كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدا ا

كما نشكل كل من ساهم من قريب أو من بعيد إ از هذا العمل.

الإهداء

ا مد على عونه وتوفيقه والصلاة والسلام من لا ن بعد مد صلى ا عليه وسلم.

أهدي رة هذا العمل ا تواضع

إ من قدمت إ ا ب وا نان إ سندي مشوار حيا من نعومة أظافري إ نيل أعلى الشهادات «أمــي»

إ الذي أحاط بوشاح العناية وأنار در وكان عونا ودعما ا ياة أحفظه ا «أبــي»

إ من شاركو رحم أمي وتقا ت معهم الأفراح والأحزان «إخو »

وإ من تلده أمي ولدته الأيام أخ «عبد القادر نعماوي»

إ من كل من تربط م علاقة الدم خا وخال وأعمامي وعما .

إ عبد العا ، عبد ا بار، قويدر، بن سا ، رشيد، نور الدين، وص، الطاهر، أم .

إ من قا ت معي عناء هذا البحث «بلعكرمي أم ا ».

إ الأستاذ ا شرف «كر بن سعيد».

عبد العزيز.

الإهداء

ا مد وكفى السلام والسلام على ا بيب ا صطفى

أهدي نعمة هذا العمل

إ الذي شق معي وبصري وبظله

إ ال أحاطت بدعوا ا وشجعت على مواصلة ا شوار «أمــي» الغالية

إ من تسجد له كلما وتنحن له أحاسيسي وعلم أن ا ياة كفاح وراء كل تعب اح

إليك «أبــي» العزيز

إ من عانقت روحي روحهم فكانوا رمز عز إخو با صوص «عبد ا بار» و«العيد» دون أن أنسى بالذكر زوجا م

وإ أخاو «زانة» و« عة»

وإ روح أخ الطاهرة «نص ة»

وإ كل من مل لقب «بلعكرمي»

وإ براعم الأسرة خاصة «غفران»، «هبة الر ان»، «راضية»، «ياسر»، «يوسف»

وإ الغالية «يا » و«فاطمة»

وإ صديقا «رقية، ة، مليكة، عقيلة، يلة، وأ اء»

وإ من مل معي عبء هذا الإ از «مباركي عبد العزيز»

كما أتوه بكل الامتنان والتقدير إ الأستاذ ا شرف «بن سعيد كر »

كما أتقدم زيل الشكر والاحترام إ الأخ «هنون عيسى» الذي سهر على كتابة هذه ا ذكرة.

أم ا .

مقدمة

مقدمة:

الرسالة فنًا من فنون النثر القولية، وهي مثل فنون النثر الأخرى، القصة المسرحية، السيرة الذاتية لها خصائصها المتميزة التي جعلتها فنًا راقيا قائما بذاته، وقد اختلف النقاد حول نشأتها، فبعضهم يقول: أنها لم تظهر إلا بعد الإسلام بفترة طويلة معتمدين على المقولة الشهيرة: «بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد» ولكن الرسالة هنا تعني الرسالة المتميزة أدبيا، ما يعني أن العرب عرفوا الرسائل منذ العصر الجاهلي لكن لم تخضع لمنهجية كما هي عملية الآن.

والحديث عن الرسالة يسوقنا إلى الحديث عن ابن زيدون فقد جاء نثره فأتح لنا رسائل خلدها التاريخ الأدبي، وهو ما شد انتباهنا، فكان الدافع الأول الذي أدى بنا اختيار هذا الموضوع؛ لأن هذه الأخيرة تحكي جانبا من حياة الشاعر الأندلسي كما سنسلط الضوء على الرسالة الهزلية التي تحكي قصة حبه لولادة والمستكفى أيضا معرفة حياة ابن زيدون، ورغبة منا في تعميق البحث وتكليف الجامعة لإنجاز هذه الرسالة.

وارتأينا أن نجري بحثنا ضمن خطة وبتوجيه من الأستاذ المشرف ضمن خطة منهجية أكاديمية كالآتي:

مقدمة.

الفصل الأول: تطور فنون النثر الأندلسي.

المبحث الأول: ابن زيدون ناثرا.

المبحث الثاني: المجالات النثرية عند ابن زيدون.

الفصل الثاني: معنى الرسالة عند ابن زيدون.

المبحث الأول: أدب الرسالة الأندلسي.

المبحث الثاني: فن الترسل عند ابن زيدون.

المبحث الثالث: الرسالة الهزلية أنموذجا.

خاتمة.

قائمة المصادر والمراجع.

الفهرس.

معتمدين في ذلك المنهج التركيبي لتلاؤمه مع سياقات البحث.

وكما في أي بحث اعترضنا مجموعة من الصعوبات وشأننا شأن أي باحث كقلة المصادر والمراجع التي تتحدث عن الموضوع، كانت من أبرز العقوبات، وضيق الوقت الذي لم يسعدنا كقضاء يعطي الحجم الزمني الذي يجب أن يستغرقه موضوع البحث تم الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع من أهمها؛ الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام وكتاب نفح الطيب.

وفي الأخير نقدم كل الاحترام والتقدير للأستاذ المشرف «بن سعيد» كما نرجو أن يكون بحثنا هذا عتبة لأي طالب أو باحث من أجل الاستفادة منه وتطوير هذه الدراسة وشكرا.

فإن وفقنا فمن ا وإن لم يكن فنلتمس العذر.

الفصل الأول:

تطور فنون النثر الأندلسي

المبحث الأول: ابن زيدون ناثرا

في إطار تلك الشخصية الموسوعية المتعددة الوجهات نركز على ابن زيدون في جانبه النثري والشعري، فقد «فرع أدبه وجاء شعره وعلى شأنه وانطلق لسانه فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب... أما سعة ذرعه وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقه حاشية لسانه، فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد والرمل لا يحصر ولا يعد».[1]

حتى أنه جلس ذات يوم لاستقبال المعزين «فما سمع يجيب رجل منهم بما أجاب الآخر لحضور جنانه وسعة ميدانه».[2]

وإذا كان مفهوم الأدب يشمل ملكتي الشعر والنثر فقد كان أبو الوليد «صاحب منظوم ومنثور... وسع البيان نظما ونثرا إلى أدب ليس للبحر تدفقه، والشعر ليس للسحر بيانه ولا للنجوم اقترانه، وخط من النثر غريب المباني، سحري الألفاظ والمعاني».[3]

وقد أثنى مؤرخو الأدب في الأندلس والمغرب على ابن زيدون، فاستوقفهم أدبه فها هو ابن بسام يقول فيه «وسع البيان نظما ونثرا، إلى أدب ليس له مثيل»،[4] وقد انفرد بخصوصية في طابعه النثري فكان أشبه بالشعر، وفي هذا الصدد يقول عنه ابن خاقان «... انفرد بخصوصية مساره الفني لنصوصه النثرية، واقتربت لغته في النثر من الشعر، وتناول المعاني التي اختصت بالشعر دون النثر».[5]

كما أن أثاره الأدبية عموما والنثرية خصوصا عبارة عن مرآة تعكس حياته وأدبيته وفنيته كما أن له ديوان جمع في حياته وصل إلينا في عدة نسخ، وأهم ما فيه؛ القصائد

---

[1]: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا/تونس، 1975، القسم 1، المجلد 21، ص338-339.

[2]: ابن بسام، المصدر نفسه، ص339.

[3]: المصدر نفسه، ص336.

[4]: المصدر نفسه، ص336.

[5]: ابن خاقان، قلائد العيقان، ج1، ص209.

الغزلية المستوحاة من حبه لولادة، وبعض القصائد المدحية وأشهرها في جهور وبني عباد».[1]

ورغم هذا المنتج الأدبي لابن زيدون الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها لم يصل إلينا إلا طائفة من رسائله كما يقول الأستاذ علي عبد العظيم «لم يبق لدينا من آثار ابن زيدون إلا طائفة قليلة من رسائله الأدبية، وسطور للكتابة في تاريخ بني أمية، ومقطوعة وصفية ونظرة نقدية، أما رسائله السياسية فقد ضاعت جميعها».[2]

وأهم ما ترك ابن زيدون في النثر الأندلسي رسالتان شهيرتان:

1. **الرسالة الجدية:**[3] هناك عدة مخطوطات لهذه الرسالة موزعة في المكتبات الأوربية ومكتبات القاهرة والموصل، وشرحها الصفدي في كتاب أسماه «تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون»، كما لها شرح ثان طبعه مصطفى عناني بالقاهرة سنة 1907 في كتاب أسماه «إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون»، وهي الرسالة التي أرسلها إلى أبي الحزم ابن جهور من السجن وهي رسالة استعطاف تذكره بولاء ابن زيدون للجهاورة، ويطلب فيها العفو عنه، ولكنه لم يستجيب.

2. **الرسالة الهزلية:**[4] طبعت هذه الرسالة للمرة الأولى مع ترجمة لاتينية سنة 1800 في مدينة ليسبك من قبل المشرف الألمانية رايسكه روهان وطبعها المشرق هيرث مرة ثانية في إيسينا وقد سرقها ابن نباتة 877هـ وطبعت في القاهرة سنة 1487هـ تحت عنوان «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون»، ولهذا الشرح عدة مخطوطات في المكتبات الأوربية، وهي رسالة أنشأتها ابن زيدون على لسان ولادة يتحكم فيها ابن عبدوس منافسه في حب ولادة.

---

[1]: فؤاد البستاني، الروائع ابن زيدون والرسالتان ومقاطع شتى، ص هـ.

[2]: شبكة رواد الفنون والآداب العربية.

[3]: رحاب عكاوي، ابن زيدون الوزير والشاعر، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع.

[4]: رحاب عكاوي، ابن زيدون الوزير والشاعر، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع.

المبحث الثاني: المجالات النثرية لابن زيدون

1. فنونه النثرية:

تمهيد:

يشبه نثر ابن زيدون وشعره في صياغته وموسيقاه، وقد انتبه القدماء إلى هذه فوصف ابن زيدون بسام رسائل الشعرية بأنها «بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور»، وقد كان أسلوب الكتابة السائد في عصره هو الأسلوب المزخرف الموشى بالصور البيانية والمحسنات البديعية، هو انعكاس حالة العصر الحافل بأسباب الترق، وقد تجلى هذا في الأدب كما تجلى في فنون العمارة والطرز الزخرفية والفنون التطبيقية Minorais، وقد نشأت الكتابة الزخرفية بالمشرق، واستقرت أوضاعها على يد ابن العميد، ثم انتشرت عن طريق تلاميذه بالمشرق، وانتقلت إلى الأندلس فصادفت هوى في النفوس وفتنانا من القراء، ومدرسة ابن العميد تعتمد على الكلام الموضع المصقول المقتبس بالقرآن والأحاديث النبوية والأشعار المأثورة والحكم المشهورة والأمثال المضروبة مع التزام السجع في أغلب الأعم والشغف بالمحسنات البديعية والصور البيانية، ولقد أجرى ابن زيدون على طبيعة عصره ولكن بقدر محدود، فلم يلزم السجع في جميع ما كتب ولم يبالغ في استعمل المحسنات البديعية، ولكنه أفرد في الاقتباس بالقرآن الكريم ومن الحديث النبوي، والأمثال المعروفة... الخ.

وفي سرد الأسماء والأحداث التاريخية مقالا جاوزت القصد في رسالته الهزلية والجدية، ولم تبقى لدينا من آثار ابن زيدون الكتابية إلا طائفة قليلة من رسائله الأدبية، وسنتناول هذه الآثار بالدراسة الموجزة بحسب ترتيبها الزمني.[1]

[1]: شرح وتحقيق علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون ورسائله نهضة مصر، دار الطباعة والنشر والتوزيع، ص77.

الرسائل الهزلية:

كتبها ابن زيدون على لسان ولادة إلى ابن عبدوس حينما بلغه أنه أرسل إليها امرأة تستميلها إليه، وقد أوسعه فيها تهكما وأشبعه سخرية، وخلع عليه ثيابا فضفاضة من الكمال لا يمكن أن ننسق معه لأنه يظم فيها قزما ضئيلا يثير الاستهزاء.

والرسالة تحمل مع هذا عواطف قوية عنيفة من حب وبغض وغيره وحقد، وهي بقوتها تثير في السامع والقارئ عواطف مماثلة تدعو إلى المشاركة الوجدانية وهذا أعظم ما يهدف إليه الكاتب. والرسالة تدل على ثقافة واسعة وإطلاع شامل على جميع المعارف والفنون والعلوم الشائعة في عصر المؤلف وفيها خيال خصب، استطاع أن يظم حوادث متفرقة وألوان متباينة، ويؤلف بينهما أبدع تأليف، وقد نجحت الرسالة في بلوغ هدفه المنشود، فإن ابن عبدوس انقطع عن زيارة ولادة عدة سنوات حتى هجر ابن زيدون قرطبة وجلاله الجو فعاد إليها لتجديد في حالة شبيهة بالارتجال.[1]

الرسالة الجدية:

كتبها الشاعر في أخريات أيام سجنه مستعطفا فيها أميره آملا أن يثير في نفسه عوامل الحنان، مذكر إياه منجد ماته السابقة في تأسيس ملكه وقصائده السابقة في الإشارة بذكره، وقد أفرغ الكاتب في هذه الرسالة جهده وأودعها أقوى رسائله في التأثير وشفعها بقصيدة عاطفية ضارعة مؤملا أن تنفذ إلى قلب الأمير.[2]

ونستطيع أن نأخذ هذه الرسالة ما أخذناه على الرسالة السابقة من حشد الأسماء والأحداث، والمبالغة في الاقتباس والتضمين وكثرة المترادفات، كما نأخذ عليها أن فيها كثيرا من الإدلال على الأمير بما يشبه لمن عليه، وهو أسلوب غير موفق في مخاطبة الحكام، كما تؤخذ عليها أن فيها يدى اللجوء إلى خصوم الأمير من ملوك الطوائف

[1]: د. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، نهج عمارة يوسف، بليدة، دار المدار الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1430هـ، 2009م، ص103.

[2]: المرجع نفسه، ص106.

المجاورتين. كما أن فيها ضربا خفيا من التأنيب، وإن كان يسوغ هذا كله من أساليب وعبارات رقيقة والكاتب على تمكنه من دراسة الأحداث التاريخية وقع في بعض الأخطاء مثل قوله «وتأولت في بيعة المقبة» ولم يتأول فيها أحد، وقوله «وتختلف عن الصلاة في بني قرطبة»، ولبس هذا من الذنوب، وقوله «وكتبت إلى عمر بن سعد أن جعجع الحسن»، والمكتوب إليه هو الحديث زيد التميمي لا عمر بن سعد.[1]

العذر فقد كتب رسالته في السجن وليس بين يديه مراجع تاريخية فضلا عن أنه كتبها وهو في حالة نفسية سيئة، ومما تأخذ أنه كان عليه أن يضرب الأمثال تأول الحلم والعفو عند المقدرة من عظماء الرجال بدلا من أن يضرب به بكبار المذنبين أو المجرمين. وعلى الرغم من هذه المآخذ فإننا نرى الرسالة تنظر بعواطف قوية عنيفة تثير جو من الأشجان، وهي إلى جانب عواطفها القوية تنبض بأفكار منطقية وإن كانت مستمدة من الوجدان، ولقد تنوعت معانيها وترجحت بين اليأس والرجاء والتقرب من التلميع والابتعاد في عبارة جزلة.

وهي بالنسبة إلى الرسالة الهزلية أقل استطرادا أبعد ما تكون عن الإملاء، وهي بهذا أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف، ونلاحظ أن الشاعر استعمل فيها ضلالا من التلميحات أكسبتها حيوية طبيعية، ففيها تصريح وتلميع وبهذا كانت حافلة بشتى الصور والألوان وكلتا الرسالتين تعبر عن دائرة المعارف المصغرة وتلصح ذوات الدراسات المتنوعة لهذا اعتنى بها الشراح وأفاض التعليق عنهما.[2]

رسالة استعطاف:

كتبها الشاعر بعد فراره من السجن، وبعد أن عاد من إشبيلية إلى قرطبة مستخفيا بالزهراء ينشد الأمان ويتخذ له الرسائل والشفاعات، وقد أرسل هذه الرسالة إلى أستاذه ابن بكر مسلم بن أحمد وشقها بقصيده منازعة يصور فيها الحالة النفسية ويتوسل بها إليه

---

[1]: المرجع نفسه، ص108.

[2]: محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، نهج عمارة يوسف البليدة، دار المدار الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م، ص120.

متشفعا به عند الأمير. وهذه الرسالة أقوى رسائله جميعا من الناحية الفنية وهي إلى هذا أطول فني بقي لدينا من نثره مع أنها لم تصل إلينا كاملة، وقد تخلص الكاتب في رسالته هذه من الاستشهاد بالأسماء والأحداث التاريخية وتحلل من قيود السجع وإلا في القليل النادر.[1]

أما ضربه للأمثال والاستشهاد بالأشعار، فهي هنا أحكم وألصق بمواضيعها من كل أثر سابق، وفي هذه الرسالة أسلم للكاتب نفسه لعواطف دون تحمل أو تكلف وصور كل ما نبض به قلبه أو عقله من مشاعر، وهذه الرسالة تلبقى ضوء أعلى ما قاساه الشاعر في سجنه من تصور لنا ما اتبع في محاكمته من إجراءات شاذة، وفيها منطق قوى غلاب وعاطفة مشيويه، وهي إلى هذا وثيقة تاريخية قيمة تلقي الضوء على النظم القضائية السائدة في عصره، وتعتبر آية من آيات دفاع المرء عن نفسه وتصلح أن تكون فصلاها ما من تاريخ المحاماة.[2]

وتجلت قوة الشاعر وطاقته الفنية في صياغتها، فهو فيها فيلسوف منطقي وعالم فقيه، والكاتب موهوب وشاعر عاطفي ومحام، فجاءت رائعة الأداء قوية التأثير، وقد نجحت هذه الرسالة في بلوغ هدفها المنشود، وخاصة بعد أن تظارفت جهود أستاذ الشاعر مع جهود ولي العهد في استعطاف الأمير.[3]

بقية الرسائل:

حفظت لنا الذخيرة ثلاث رسائل موجزة صاغها الكاتب في التودد إلى المعتضد بن عباد ومفاوضته في الرحيل إليه من قرطبة وجه الأول منها إلى صديقه أبي عامر بن سلمة وسيطة لدى المعتضد وجه الثانية والثالثة إلى المعتضد نفسه، والشاعر في هذه

[1]: المرجع نفسه، ص112.

[2]: د. محمد مصطفى الشعكة، الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه)، بيروت، 1980، ص65.

[3]: المرجع نفسه، ص67.

الرسائل في توثيق صلابة بالأمير فعاش في كتفه بقية حياته متضعا بأكرم محل وأقوى سلطان.[1]

النثر الوصفي:

يقين لدينا مقطوعة وصفية صاغها الكاتب في تصوير ليلة طواها في صبحة ولادة ذاق فيها أفاويق السعادة والنعيم، ثم بتصوير موقف مقابضة وعناد، ويظهر من سياق الوصف أنه كان ينتقل من النثر أحيانًا فتتدفق عواطفه منظومة شعرا، وقد التزم الكاتب في وصفه الفقرات المسجوعة، وحشد فيها ظلالا من الاستعارات والتشبيهات، ورصعها بالمحسنات البديعية ومزج فيما بين وصف الطبيعة ووصف الحبيبة، فتجلت في نثره خصائص شعره في السيب ويظهر من عبارتها أن الشاعر كتبها في كهولته ليصور فيها ذكريات عزيزة على نفسه، وليسترجع بها صور شبابه، على أننا نأخذ عليه فيها أنه تكلف كثيرا في صياغتها حتى كادت الزخارف للقضية تطغى على عاطفته المسبوبة وهواه الخلاب.[2]

النثر النقدي:

حفظ لنا المقري نصا نقديا لابن زيدون، وكانت ولادة قد حثته على أن لها ما يجد عليها فيه نقد، ثم كتبت إليه أبيات ختمها بقوله:

سقى ا َأرضا قَد عدتْ ا منْزلاً

بِكُلِ سكُوبٍ هاطِلِ الودقِ مغْدقِ

فنبها إلى أن هذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأن القدماء نقدوا ذا الرمة.

[1]: المرجع نفسه، ص103.

[2]: د. عبدنان محمد غزال، مصادر دراسة ابن زيدون، الكويت، 2004، ص25.

وإذا أردنا أن نلتمس أراء ابن زيدون في النقد الأدبي، فإننا نجد في شعره نظرات نقدية سديدة، فالشعر لا ينبعث إلا عن فطرة نصية موهوبة الشعر ويرتاح، وخير الشعر عنده ما وضحت معانيه ورقت ألفاظه، بحيث يتلقفه الخاطر بلا كد ولا عناء، وينبغي في صياغه أن تكون الألفاظ متجانسة متقاربة تسرى فيها روح واحدة، وتحمل نغما موسيقيا متجانسا، ومن سمات الشعر الجيد أنه ينقذ من السمع إلى القلب مباشرة في سياق مطرد منضود.[1]

النثر التاريخي:

يتجلى لنا شغف الشاعر بالتاريخ في آثاره الشعرية والنثرية، وحدثنا المقري أنه ألف كتابا جامعا في التاريخ بين أمية بالأندلس سماه التنبيين، وقد ضاع هذا الكتاب كما ضاعت معظم رسائل الشاعر وطائفة كثيرة من شعره، ولكن بقيت من هذا الكتاب يضعه التأمل في هذه السطور أثناء حديثه عن عبد الرحمن، ونلاحظ أن الشاعر التزم في كتابه نازعة الإيجاز مع إيضاح وأسلوب سهل ودقيق.[2]

2. أسلوبه الفني:

تمهيد:

يقول بوفون Bufon «إن الأسلوب هو الرجل نفسه، وهو تعبير صائب، فكل منا أسلوب في حياته الخاصة، وطرق تفكيره ومزاجه وانفعالاته...» كما أن لكل فئات أسلوبه الذاتي المعبر عن شخصيته القوية ومواهبه الخلاقة، ولهذا كان واجبا على كل ناقد أو دارس أن ينعرف على خصائص الأسلوب المميز لمن يتناوله من الكتاب أو الشعراء. سنحاول أن ندرس عناصر الأسلوب عند ابن زيدون.

---

[1]: د. مصطفى الشكعة، قراءة متأنية لنثر ابن زيدون ومجلة الثقافة الدمشقية، ص37.

[2]: المرجع نفسه، ص40.

الفكرة Thought:

يستمد ابن زيدون أفكاره من موردين هامين، أولهما دراساته الثقافية الأدبية الواسعة لمعارف عصره، وما سبقه من عصور، وثانيهما تجارته المديدة المستمدة من وقائع حياته وأحداث عصره من أعلام الرجال، وأفكاره تبدو في ثنايا نثره أكثر مما تبدو في شعره، وهو أمر طبيعي ينسق مع طبعة الفيت وكثيرا ما يستعير من أفكاره ومن أفكار غيره، ويبالغ في هذا حتى تزحم أفكاره الخاصة وتضفي عليها. ولكنه يصيغ بصيغة كل ما يستعيره من آراء، حتى يبدي عليها طابعه الخاص، وكثيرا ما يكرر أفكاره ويرددها، ولعله يريد تأكيدها والاقتناع بها، ونلتمس في بعضها الدقة وتصميم، والحقيقة أن ابن زيدون بارع في تلوين الأفكار.[1]

العاطفة Sentiment:

يرى فرويد أن الغريزة الجنسية في المسؤول عن كل ما يصدره عن الإنسان من نشاط أم تصرف، أما إدلي فيرى أن غريزة حب السيطرة هي أساس تصرفات الإنسان، وإذا حللنا عاطفة الحب عند ابن زيدون وجدناها ترتكز على جميع الغرائز البشرية في الكائن الإنساني، وخاصة الغريزة الجنسية وغريزة السيطرة، بهذا كانت عاطفته عميقة قوية استندت جذورها في أعماق نفسه، وتفرعت أعضائها فأتت أطيب، وقد ضاف ابن زيدون مرارة الحرمان، وأن عاطفته تتسع، فتمد إلى أصدقائه.[2]

الخيال Imagination:

من الخيال ما يكون عامل منبسطًا يتناول الحياة جميعا، ويظهر في صورة مرعبة تقبض بالأضواء والألوان والظلال، وتصور المظاهر الخارجية كما تنفذ إلى البواطن والأعماق المستقرة في الأغوار.

[1]: علي عبد العظيم، ابن زيدون، نوابغ الفكر العربي رقم (5)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة 117، 1990، ص130.

[2]: المرجع نفسه، ص138.

وقد يرى كتاب الإغريق في هذا النوع بما أبدعوه من ملاحم ومسرحيات تدور حول الآلهة والأبطال، أما الشعر الغنائي فلا يتسع لإبراز هذا الخيال المركب، ولهذا كان الأدب العربي فقيرا فيه، ولا تكاد تجد منه إلا ظلالاً في الأدب الشعبي، مثل: ملاحم عنتر، ألف ليلة وليلة... الخ، أما الأدب العربي فإننا نجد في أمثلة للخيال والابتكار، ويقوم على اختراع صور ظريفة تتحد عناصرها من التجارب السابقة والمشاهد المحزنة والمعارف الشاملة بعد تهذيبها بالإضافة والحذف والتلوين، كما نجد فيه أمثلة للخيال التأليفي ويقوم على استدعاء صور حقيقية ثم الربط بينها بعد تنظيمها وتنسيقها ويشبه عملية التلوين في التصوير.[1]

وهناك نوع ثالث من الخيال يسمة الخيال التفسيري، وهو لا يعني تكوين صور جديدة كالابتكاري، ولا بالتنسيق أو التنظيم كالتأليفي، وإنما هو تعليلي يدرك الجمال ويحاول أن يفسره ونستطيع أن نجد عند ابن زيدون أنماطًا من هذه الأخيلة على اختلاف في النسب والإبداع.

الموسيقى Music:

يرى كولوج أن الوزن ينشأ من توازن في العقل ناشئ من الانفعال والمجهود الاختباري، ومن التوازن بين الحالتين المتعارضين حالة التأثير الوجداني وحالة الضبط الإرادي، تجتمع هاتان الطائفتان اجتماع تمازج واتحاد لا اجتماع تقارب وجوار، فإن كانت تبدو منه أحيانا في النثر بعضها سمات ولقد حاول بعض الباحثين أن يربط بين الشعراء ونبضات القلب ويروا صلة وثيقة بين نبضات القلب وما يقوم به الجهاز الصوتي، وقد وردت على النطق بعدد من المقاطع يعادل ثلاثة لكل نبضة قلبية، ومن هنا نتعرف على الموسيقى التعبيرية عند ابن زيدون، وإننا نعلم من دراستنا لحياته، أنه كان مفتونًا بالموسيقى والغناء، وكثيرا ما كان الغناء يستحقه فينشى التقاليد ويغفل عن

[1]: حسن حاد حسين، ابن زيدون، عصره، حياته وأدبه، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، 1955، ص304.

مقتضيات الذوق في معاملة حبيبته افتتانًا منه بالغناء، وكان يجسد الأشياء إيجادة تامة كان يتخذ منها ستارا.[1]

الصورة Form:

يرى بعض النقاد أن مقياس الصورة الأدبية هو أن يستطيع في دقة أمانة نقل العواطف والأفكار ولكننا اكتفينا في الأسلوب العلمي بالدقة والأمانة، فإننا لا نستطيع أن نكتفي بمهما في الأسلوب الأدبي.

بل تضيف إليها جمال التصوير وبعد الألوان وعذرية التنغيم.

وكان ابن زيدون بارعا في التلوين صوره وأنغامه وفقًا للتجارب الداخلية والظروف الخارجية، التي تدفعه للتعبير، فتارة يلجأ إلى الروعة والفخامة والأوزان الممتدة والقوافي الجزلة في المواطن الجدية، وصياغة الكاتب تعتمد أحيانًا على المحسنات البديعية في غير تكلف ولا استكراه، وهو مشغوف بالمطابعة، وقد ينبسط فيها فيمدها إلى المقابلة.[2]

3. منزلته الأدبية:

على الرغم من شهرة ابن زيدون وافتتان الناس به، فإن لم ينل المكانة الجديرة من التقدير، وإن كان لأمرين يعرف الشعر بأنه إحلال كل ما في نفس الإنسان، وقلبه من مشاعر خاصة، وكل ما في عقله من تفكير ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصوير والتوقيع، فإننا بتطبيق هذا التعريف على ابن زيدون نجده قد بلغ القمة أو هو منها على مدى قريب، فقد مزج هواه القلاب بذكريات طفولته العذاب وتدفقًا في تيار شعوره القوي بالطبيعة وهيامه بها هياما فاق كل التقدير، فعاطفة الحب تحبس في نفسه ممزجة بنبضات الطبيعة المتعددة ومشاطرتها ما يحبس بصورة من مشاعر وأشجان.

[1]: المرجع نفسه، ص310.

[2]: المرجع نفسه، ص315.

وابن زيدون لا يكاد ينسى لطبيعة حتى في سجنه فإنه يمزج بشكانه بتنزيمات برفقها للطبيعة ممزوجة بذكريات عن حبيبته، فالقمر يتسال إلى غرفته بالسجن فيثير فيه كوامن ذكريات والليل السابي يبعث فيه أشجى الأنات. فيكاد يمزج سواده بسواد القلب، ولا نكاد نجد في الشعر العربي مثيلاً لابن زيدون في هذا الاتجاه، بل أن الشعر العربي لم يعرفه إلا في العصور الحديثة.

وقد انتبه إلى هذا أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة، حيث قرر أن الاتجاه العاطفي الرمزي المتعلق بالطبيعة والذي اتجه إليه الأدب الأوربي في القرن 19 كان معروفًا لدى العرب من يوم أن عرفوا الشعر، وخاصة بما شاهدوه جميلاً في الأندلس واستشهد على هذا بقصيدة ابن زيدون في الزهراء، ثم مقطوعته البائية.

ثم حال هذين الأثرين بقوله «هذه الزمرية أو هذا الممثل في الطبيعة هو ما يريده النقد الأدبي، وهو ما فهمه العرب منذ زمن بعيد، وهو ما كان واضحا الأثر في طبيعة الأندلس الواضحة، ومن الغريب أن القدماء على إعجابهم بابن زيدون فضلوا عليه ابن هاني، حيث يعلوه أشهر الأندلسي وعلى أن البعض افتنوا بنونية ابن زيدون، فقرروا أن من ليس البياض تختم بالمفيق وقرأ لأبي عمرو وثقفه الشافعي وروى قصيدة ابن زيدون، فقد استكمل الطرق».[1]

ومن أشهر معارضيه أبو بكر بن الصلح، وقد عارضه في العصر الحديث إسماعيل صبري... أما الباحثون الغربيون فقد أشاروا بعبقرية ابن زيدون ومكانه الرفيع.

1. كون أن أسلوب ابن زيدون «كان ممثلاً لأنقى أسلوب عربي منهجي في الأندلس، وأنه يمكن موازنته بالبحتري أو المتنبي»، ثم يقرر أنه لولا تأثيره ولادة على ابن زيدون لفقد الشعر العربي أعظم جواهر.
2. ويذكر حب أنه يعتبر على الأرجح أعظم الشعراء الأندلس بأن حبه المبكر ورسائله الشعرية في أخريات حياته.

[1]: المرجع نفسه، ص580.

3. ويذكر الدكتور فيليب حتى أن بعض الدراسين «يعد ابن زيدون أعظم كتاب الأندلس على الإطلاق».[1]

كما أولع كثيرا من المستشرقين بموازنته وترجمة آثاره، فقد نشر الرسالة الهزلية مع ترجمتها اللاتينية، وترجمت هذه الرسالة أيضا إلى التركية مع شرح ابن نباتة لها،. ونشر شؤون الرسالة الجدية أما أثر ابن زيدون فيما تلاه من الأدباء، فقد تحدثنا ممن عارضه وهناك الكثيرون من الكتاب تأثروا به، ومن أشهرهم محي الدين ابن عبد الظاهر، فقد قلده في رسائله الجدية كما أولع القدماء بمحاكاة ابن زيدون في شعره ونثره أولعوا بشرح رسالته الجدية والهزلية.

4. وجه للقصاص المعاصرين:

كما شغل برسالته الشراح والمهتمون بأحداث حياته وروعة آثاره كتاب لقصة المحدثون، ولا تكاد تجد شاعرا عربيا قد ظفر باتحاد إلى طائفة من القصاص كما ظفر ابن زيدون، وقد تنوعت القصص فيه ما بين سرد وتحليلي أو حوار مسرحي وما بين انسياب نثر أو نظام شعري، وأهم ما عرفناه من ذلك حسب تاريخ ظهوره:

1. الوزير ابن زيدون مع ولادة المسرحية من ستة (06) فصول للأستاذ إبراهيم الأحدب الطرابلسي.
2. عزام الشعراء: فصل مسرحي شعري للشاعر أحمد رامي.
3. ولادة ابن زيدون المؤلف العراقي حدثنا عن إخواننا العراقيون.
4. ولادة: مسرحية شعرية من أربعة (04) فصول وستة (06) منابر للأستاذ علي عبد العظيم.
5. غراميات ولادة: مسرحية شعرية من ثلاثة (03) فصول للشاعر الأردني حسين سراج باشا.

[1]: شرح وتحقيق علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون ورسائله، مصر، دار الطباعة والنشر والتوزيع، ص106.

والدارس في هذه الرسالة يرى ابن زيدون متأثرا فيها برسالة التربيع والتدوير التي صاغها الجاحظ في السخرية من أحمد عبد الوهاب الكاتب البغدادي، كما أن فيها ملامح من رسالة أبي حيان في ثلب الوزرين، بمناسبة وغير مناسبة حتى جاوزت السبعين (70) اسما خلط فيها مشاعي العرب والقدماء بالمحدثين والمعروفين بالمجهولين، ولم يكتفي بهذا بل أكثر في رسالته من أساليب غيره وبالغ في استعمال المترادفات مبالغة خرجت عن المألوف.

وأقنع في بعض عبارتها، واندفع في هجومه فمس حبيبته مسا عنيفًا، بحيث أظهرها في صورة البغي الملوك دون مبرر لهذا الهجوم حتى من وراء هذا انصرفها عنه إلى غريه وهجاءها إياه، وفي بعض عبارات الرسالة غموض مثل قوله: «وفصل بين الأمم وصرف وقسم، وعدل وقوم، وصنف الأسماء والأفعال».

حتى ابن نباتة شارح الرسالة لم يقف المقصود من «قوله صرف وقسم وعدل وقوم». فلجأ إلى العلماء بتفسيرها تفسيرا فقيها مقنع وبخاصة لوقوعها بين اصطلاحين نحويين، ولكن الرسالة على الرغم من هذه المآخذ تعتبر في مقدمة الرسائل الخالدة في الأدب العربي، لأن أسلوبها مثير لضحك من جوانب عديدة فلما اجتمعت في رسالة إلى طريقة المقابلات وأسلوب المفارقات فغرضه خبر عرض وصوره أبدع تصوير، ولقد استطاع الكاتب على الرغم من ثرة اقتباسه وتضمنه أو يوائم بين هذه العبارات المستجلبة الألوان متلائم في نسق حتى من لا يعرفها أنها جميعا من صياغة الكاتب وحده.[1]

[1]: د. مصطفى الشكعة، قراءة مستأنية النثر ابن زيدون، مجلة الكتاب العراقية، ص73.

الفصل الثاني:

فن الترسل عند ابن زيدون

تمهيد:

سنتناول في هذا الفصل فنًا من فنون النثر الكتابي ألا وهو الرسالة، والتي تعد من الفنون النثرية التي حفلت بها الصناعة في الكتابة، وقد تنوعت أغراضها ومراميها وهي الرسائل الديوانية أو الرسمية والرسالة الأحوانية (الشخصية) والرسائل الأدبية المثالية.

وقد عرف هذا الفن عن طائفة من الكتاب والشعراء الأندلسيين أمثل ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب الذين تأثروا بأساليب النثر العربي في المشرق والمتمثلة في الجاحظ وابن العميد والقافي الفاضل، فإنهم استطاعوا أن ينشئوا فنا راقياً.[1]

ونحن فيها الفصل سنتطرق إلى تعريف الرسالة وأنواعها.

[1]: يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ص303.

المبحث الأول: فن الرسالة عند ابن زيدون.

أولا: النثر في الأندلس

1. الكتابة الديوانية:

بدأت النصوص النثرية في الأندلس –كما بدأ الشعر- بالقليل المروي عن شخصيات مشرقية دخلت الأندلس واستقرت هناك الولادة والقادة وذوي المكانة الذين تحفظ عنهم الآثار والأخبار.[1]

وهذا خبر رواه صاحب (البيان المغرب) عند عبيد ا بن لحبحاب الذي كان واليا على إفريقيا والمغرب والأندلس، وكان رئيسا نبيلاً، وأميرا جليلاً بارعا في الخطابة والفصاحة، واتفق أن ورد على عبيد ا بن لحبحاب عقبة بن الحجاج السلولي يهنئه بالولاية، فأكرمه عبيد ا ، وبالغ في إكرامه فاغتاظ أبناء عبيد ا لذاك، وعرف عبيد ا من أبناءه موقفهم، فجمع الناس، وقام فيهم خطيبا فقال: «أيها الناس إن بني هؤلاء عزتهم عزة الشيطان لعزة السلطان فأرادوا أمرا أخرج به عن الحق، وأنكروا ما رأوا من يرى لهذا الرجل إنما أخبركم أنه مولاي (من معنى المولى: السيد) وأن أباه أعتق أبي وأنا أكره كتما أمر، ا سبحانه شهيد علي به» !

وهذا أقدر من الكلام يدل على الإيجاز والاختصار والقصد إلى إبلاغ الإفهام مجردا عن زينة وزخرف، وهو كلام مباشر وأبلغ المقصود.[2]

«من عبد العزيز إلى تدمير: أنه نزل على الصلح، وأن له عهد ا وذمته: ألا ينزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ونسائهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم ما تعبد ونصح، وأنه لا يؤوي لنا عدوا ولا يخون لنا أمنًا، ولا يكتم خبرا عمله».

---

[1]: ابن عذاري، البيان المغرب، ص50-51.

[2]: المرجع نفسه، ص53.

والنص يذكرنا بالنصوص المشابهة في صدر الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

استقرت أحوال الأندلس من الناحية الإدارية في عصر الإمارة الأموية، وتبع ذلك كثرة الكتاب تناط بهم المهام الإدارية في دائرة الدولة المختلفة، وكان لابد للكاتب لكي يصل إلى رتبة الكتابة من أن ينال حظًا من الثقافة والمعرفة والمعلومات العامة من جهة، ومن المعلومات الخاصة التي تؤهله للعمل في الكتابة الديوانية وتسيير الشؤون المناسبة.

وكانت رتبة رفيعة في الأندلس وكانت لفظة الكاتب تطلق على كتاب الرسائل وكتاب الزمام، أما كتابة الرسائل فمعروفة، وأما كتابة الزمام فيتحف ضبها الميؤول عن شؤونه الخراج، وكانوا يطلقون عبارة (الكتابة العليا) على الهيئة العامة للكتابة في الدولة أو الإمارة.[1]

والنصوص في صدر الدولة الأموية قليلة لا تقدم القدر الوافي من أنواع الترسل لإقامة دراسة موسعة تطلق فيها الأحكام عن استقراء كاف، من ذلك قول بعض الدارسين المعاصرين.[2]

إن الكتابة الرسمية تدل في هذه المرحلة «على تفضيل الإيجار والقصد في التعبير وإبتار المعنى». ومن هنا فضلوا الرسائل القصار والأجوبة القريبة من شكل التوقيعات.[3]

2. الرسالة الإخوانية:

ويقال فيها: الرسائل الشخصية، لإضهار اختلافها عن الرسائل السلطانية أو الديوانية. وهي رسائل يعبر فيها الكاتب عن قضايا خاصة أو صور شخصية، أو تتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل والأصدقاء ممن قرب مكانه أو بعد مزاره ويدخل

---

[1]: د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص325.

[2]: المرجع نفسه، ص326.

[3]: محمد بن عبد الغفور الكلاعي، راجع أحكام صنعة الكلام باب التوقيعات.

في ذلك النهائي، والعتاب، والاستعطاف، والاعتذار، والتعازي، والثناء، والشكر، وما شابه ذلك من الموضوعات والأغراض.

ومن أوائل من بقي شيء من رسائلهم ابن دراج القسطلي الذي اشتهر شاعر كبير أيام الحاجب المنصور، وفي أوائل القرن الخامس وقد أثنى ابن شهيد وابن حزم على رسائله، وهي مفقودة إلا اليسيرة في كتاب الذخيرة.[1]

وعكست رسائل الأدباء الإخوانية أو الشخصية في هذا العصر ظروفه الاجتماعية، وحياة الأديب في ظلال ذلك الزمان المضطرب سياسا، والمضطرب اجتماعيا أيضا – بصفة عامة- ومثلما نجد رسائل الشكوى وقسوة الحياة من جهة نجد رسائل التهاني، واللقائي على مجالس الأنس وحفلات الناس من جهة ثانية.

وقرأ رسالة شكر للوزير الكاتب ابن عمر بن الباجي وهو من بلقاء الكتاب بالأندلس، كتبها المقتدر بن هود ملك سوفسطه إلى ابن ذي النون ملك طليطلة يشكره فيها على إطلاق أبي مروان بن غصن الحجاري من السجن.[2]

وأدخل مؤرخوا الأدب في الرسائل الإخوانية رسائل متبادلة بين الأدباء في ما بينهم، وبين غيرهم أيضا، لها علاقة بالأزهار والأنوار سماها بعضهم الرسائل الزهرية، ونجد منها في كتاب الذخيرة لابن بسام وفي كتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد الحميري والرسالة واحدة في "الزهريات" التي فشا نهجها، وكثر استخدماها لأغراض شتى والكتاب الشاعر الجزيري أراد أن يؤكد الصلة بينه وبين الحاجب المتصور، فاستفاد من نرجسه مبكرة ظهرت زهرتها في كانون الأول في عز البرد، وجعلها جديرة بأن تكون للممدوح وأن تمثل بين يديه.[3]

---

[1]: ابن بسام، الذخيرة، ص66.

[2]: المصدر نفسه، ص68.

[3]: أحمد هيكل، الأدب الأندلسي عن مخطوط من المقتبس، ص188.

وأنطق الكتابة النرجسية على سبيل الاستعارة فتحدثت عن خصائصها الزهرية شكلا وعطرا وألوانا زاهية.

وجعل فكرة المعاتبة وسيلة للانتقال من النثر إلى الشعر، ولتكون الزهرة نثرها وشعرها هدية للمنصور عيسى أن تحض هي أو يحض الكاتب -بالمناسبة- برضى المنظور وأريحته أيضا، وقد استفاد الكاتب من اسم النرجس كما يقوله الأندلسيون وهو البهار وحرك المقاصد المعنوية في إطار المقاصد اللغوية بشيء حسن من المهارة وحسن التصرف فالنرجس لم يسمى بهارا لأنه يغلب ويبهر.

والكاتب يثني على صاحبه، ويذكر مكانته، ويرفع شأنه عن طريق تصوير شوق منصب القضاء إليه وتوق تلك اللحظة نحوه... واعتمد على أسلوب السجع وأكثر من الإشارات التاريخية واللمحات الأدبية والتزم زيادة على ذلك لزوم ما لا يلزم.[1]

3. الرسائل الأدبية:

كثرت الرسائل الأدبية في التراث الأندلسي، وتعددت أغراضها وأظهر الأديب الأندلسي براعته في تناول موضوعاته وتلوينها وصدرت رسائل أدبية تعالج جوانب ذات العلاقة الأندلسية مثل الرسائل التي «تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب، وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها».

والرسائل التي تقال على لسان الأزهار والأنوار وما يخص الطبيعة، والرسائل التي يعتمد كاتبها على عنصر الفكاهة والرعاية.

ونذكر من أسماء الكتاب المشهورين: ابن شهيد ورسالة التوابع والزوابع وابن زيدون الهزلية، ابن خفاجة في وصف الطبيعة وابن حزم في طوق الحمامة، والكلام على الحب والمحبين وابن حزم في الخصال في الرسائل الذوزورية.[2]

---

[1]: المصدر نفسه، ص129.

[2]: د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص399.

4. المقامة الأندلسية:

دخلت المقامات الأندلس في حينها، في أثناء الحركة الحيائية والثقافية المتبادلة بين الأندلس والمغرب من جهة والمشرق من جهة أخرى، ووصول مقامات بديع الزمان إليهم لم يحفز على إنشاء مقامات مماثلة تجري على النهج الذي صارت عليه، وإن أنشؤوا مقامات مقاربة، أو استفادوا منها في نصوصهم الأدبية أو رسائلهم الفنية.[1] والمقامات الباقية لم يقلد البديع أو حاول مجارات بعض خصائصه القليلة، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات لغياب عنصر الكدية، وغياب عناصر الإضحاك أو المفاجأة وخلوها من حيوية مقامات بديع الزمان، ومن هذه المقامات:

1. مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد.
2. مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي.
3. مقامة لابن المعلم.[2]

والتفت الأندلسيون، بعد مرحلة الهمداني إلى مقامات الحريري، وصاغوا على منوالها، وقلدوها وقد سمع عدد من الأندلسيين هذه المقامات من صاحبها الحريري ونقلوها معها إلى بلاد الأندلس وهيؤوا لها جوا لم يهيأ مثله المقامات الهمداني، ومن أشهر هؤلاء أبو قاسم بن جهور الذي أقرأ مقامات الحريري لعدد كبير من الدارسين وطلبة العلم وممن سمعها أبو العباس الشريشي أخذها عن أبي بكر أزهر الحجري صهرا أبي القاسم بن جهور، وعن أبي بكر بن مالك الفهدي وهو آخر لابن جهور، وأخذها أيضا عن عدد من الأدباء مثل ابن جبير الرحالة المعروف وقد ألف الشريشي شروحا على المقامات الحريرية الكبير والأوسط والأصغر. وقد شرح مقامات الحريري في الأندلس أدباء آخرون اهتموا بهذه المقامات رواية وشرحا ومعارضة.[3]

---

[1]: د. عبد الملك مرتاض في فن المقامات في الأدب العربي، ط3، الدار تونسية، 1988، ص139.

[2]: المصدر نفسه، ص141.

[3]: سامي مكي الفاني، دراسات في الأدب الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ص406.

تحدث الحارث في أول المقامة عن جوها وإطارها، فهو في منطقة من الدين وقد ابتهج المستقلون في الأرض بنزول المطر الغزير، وتوقع الموسم الوفير وبينما كان الحارس مع أولئك الفلاحين إذ برز رجل رفع صوتا جهور يلفت إليه الأنظار وحثهم على صلته ويده فقال: «أيها الجمع الأريض، والسؤدد العريض، والنفر البيض والتائل المستقيض والهمم السامية، والحفائظ الرامية، والسيوق الماضية، واللبوث الضارية، والقدوم المصاعب والوشيح الراغب حقا إنكم لقطب الرجاء ورحى الهيجاء، وجلا العمى والعماء، أما والذي كلاكم وأنبأ كلاكم ملأ بالخيرات ملاكم، إن للغم لشكرا هو أوسع غاية وأرفع راية وأرق أنفاسا، وأضفى لباسا وأعلى مظاهر وأزكى بواطن وظواهر وأربح مسالك وأنجح مالك وأسرع قبولا، وأبعد ذيولا، كلا ليس الهناء بالدس والنداء بالهمس ورئمان العلوق غصة في الخلوق».[1]

5. أدب الرحلة:

نشط التأليف في فن الرحلة، وتسجيل وقائع تلك الرحلات ومجرياتها في عصور الأدب العربي المختلفة، ولفت الرحلات الأندلسية النظر لبعد بلادهم عن المشرق، ووجود عنصر المخاطرة والمغامرة في خط سير الرحلة برا وبحرا، ولمزج بعض الرحالة، ولقاء العلماء، وتسجيل بعض الوقائع الثقافية والحضارية.

ومما أثر في نشاط الرحلة.

السعي الحثيث من أنحاء الأرض لأداء فريضة الحج وقصد المسجد النبوي والمسجد الأقصى.

الإغراب في الأرض مع جيوش الفتح.

والرحلة في طلب الحديث والعلوم المختلفة، ولقاء العلماء والأخذ عنهم.

وروح المغامرة وعقلية البحث والكشف والاستقصاء.

---

[1]: المصدر نفسه، ص408.

اتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية.

ومن الرحلات القديمة الباقية رحلة ابن فضلات التي كانت سنة 259.[1]

والرحلات على وجه من وجوهها لاحقة بعلم الجغرافية لما يقدمه الرحالة من معلومات وصفية ويرصد من ظواهر طبيعية، ويسجل من أرقام وحقائق في طبيعة الحياة وفي ظروفها الاقتصادية والبشرية والرحلات معرض معلومات تاريخية وإذا كانت الرحلات لاحقة بواحد أو بأكثر من واحد من العلوم، وهي فن من الفنون الأدبية في جوانب عديدة، والإمتاع الإخباري والجمال الأسلوبي والحقيقة التاريخية والرؤى الأدبية.[2]

وعرفت الأندلسيون والمغاربة بالطرق والمسالك والممالك والمدن بين اللهجات ونقلت العادات والتقاليد ما بين البلدان شرقا وغربا وخرجت بعد من جلة العلماء وقت تدوين الرحلة، وأول من يذكر من رحالة الأندلس يحي بن حكم الغزال، فقد قام بمحلتين إلى بلاد النور وماله بين إلى قسطنطية، وليس لدينا إلا أخبار عن هذه الرحلة، وطرائق تدل على ذكاء ذلك السفير الرحالة وخبرته الدبلوماسية.[3]

وعلى أن أشهر الرحالة الأندلسيين هو ابن جبير والحقيقة أن ابن جبير عني رحلته بالأسلوب السهل المرسل الخالي من الصنعة والزخرف والتوشية في معظم تلك الرحلة غير أنه استعمل السجع شيئا قليلا، كالكلام الذي قاله عند رؤيته دمشق أو ما رصدها وكأنه أراد وأثبت للقارئ أنه قادر على انتهاج الأسلوب الشائع السائد عند المجودين آنذاك، في كتاب بأنهم الأديبة قال عند وصفه مدينة دمشق وما يكتفيها ويحيط بها.[4]

---

[1]: ينظر كتاب تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشكو فسكي، ص53.

[2]: المرجع نفسه، ص54.

[3]: يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1988، ص50.

[4]: المرجع نفسه، ص51.

المبحث الثاني: النثر عند ابن زيدون

ابن زيدون ورسالتاه:

بقي من آثار ابن زيدون النثرية رسالتاه المشهورتان عرفت إحداهما بالرسالة الهزلية والأخرى بالرسالة الجدية.

أما الهزلية فأنشأها الكاتب على لسان ولادة يبعث فيها بابن عبدوس على سبيل التهكم به والسخرية (تصفية الحسابات كما يقال الآن والرسالة قطعة أدبية معجبة من حيث أسلوبها وصياغتها وتتابع الأفكار فيها والظاهر أن ابن زيدون استفاد من رسالة الجاحظ المسماة بالتربيع والتدوير التي أدارها على رجل اسمه محمد ابن عبد الوهاب.[1]

وقد أحسن ابن زيدون التعبير والتصوير، وبلغ مزاده من إثارة السخرية والضحك والتهكم البالغ، وقد مضى ابن زيدون على شاكلة الجاحظ فأكثر من ذكر أسماء الرجال وما يتصل بهم من تاريخ والأخبار والأحداث. مع محاولته الواضحة أن يكون لرسالته سماتها بطريقة عرضه لأولئك الرجال، وفي إكثاره من ضرب الأمثال ونثر الأبيات الشعرية، وجلب الأشطار من الشعراء الآخرين بما يوافق السياق والمقصد حتى صارت الرسالة في حاجة إلى شرح وتعريف بالأعلام والأشعار وبسط للإشارات ومختصرات الأخبار وتبدأ الرسالة على هذا النحو «أما بعد أيها المصاب المورط بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطة العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على السراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العجب أكذب معرفة المرئ نفسه أصوب...».[2]

---

[1]: شرح ابن نباتة، الرسالة الهزلية، كتاب مطبوع بعنوان سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، دار الفكر العربي، القاهرة، ص353.

[2]: المرجع نفسه، ص356.

1. الرسالة الجدية:

كان دخول ابن زيدون السجن تجربة، بحياته ونظرته إلى الناس وتعامله معهم من كبير وصغير، ولدخول ابن زيدون السجن قصة في وقت واحد أو في مدتين متقاربتين جدا، وقع الكاتب ذو المكانة الاجتماعية والسياسية ورطتين: الأولى أن وكيل أعمال ابن زيدون اعتدى على أرض مملوكة لسيدة لم تشأ أن تبيع تلك الأرض، فاشتكت للقاضي وكان معروفا بالشدة مع المسؤولية وذوي النفوذ إذا وقفوا بين يديه، فأمر بسجن ابن زيدون ولم يقبل أي حل آخر.

والثانية: أن ابن جهور على رغم مكانه ابن زيدون وسابق خدمته وطاعته شك فيه، وظن أن له يدا في حركة كانت تدبر ضده فسكت عن دخوله السكن، ولم يعمل على إخراجه ولبث فيه خمس مئة يوم، كما ذكر ابن زيدون نفسيته.

ومن هنا كان التفات الشاعر في سجنه إلى أبي الحزام بن جهور بالشعر والنثر معا في محاولة منه لاسترضائه، ودعوة ضارعة لفك قيد السجن عنه.

وتمثل الشاعر في أكثر من قصيدة من "الهم"، "الريب" وتصريحه بالولاء والوفاء يدل على ما روض من تغير قلب ابن جهور على ابن زيدون وتركه في السجن تخلصا منه، وإخفائه عن الساحة السياسية أو تأديبا له (لو أحسن الظن بان جهور) على أن قلوب معظم حكام دول الطوائف كانت قلوب قاسية، فأكثرهم لا يصلحون للحكم ولا تليق بهم الرياسة.[1]

وتتألف الرسالة الجدية من جزأين متكاملين، قسم منثور وقسم شعري فيه قصيدة تتم المقصد وتستنفذ الطاقة النفسية المتوهجة.

تبدأ الرسالة ببيان العلاقة القديمة الوثيقة بين ابن زيدون وابن جهور «يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتيادي له وامتدادي منه».

[1]: علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1990، ص131.

والدعاء له مستهل الكلام ترقيقا له واستمالة لقوله «ومن أبقاه ا ماضي العزم، وأرض زند الأمل، ثابت عهد النعمة» والإشارة إلى ما أصابه من نكبة السجن، وتسويغ ما درى له بما تحيته المقاديرة «إن سلبني -أعزك ا - لباس إنعامك وعطلتني من حلى إيناسك وأظمأنني إلى برودد إسعافك، ونقضت إلى كف حياتك اك وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحسن الجماد باستنادي إليك، فلا عزوا قد يعض بالماء شاربه ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتي الحذر عن مأميته...».

والأصل في نجاح مقصد رسالته هذه: «هذا العبث محمود عواقب، وهذه النبوة غمرة ثم تتجلى، وهذه النكبة سحابة مسيف عن قريب تتشع...».

بعث ابن زيدون برسالته إلى أبي الحزم بن جهور، وهو في قمة التأثر والانفعال والتهابه لعاطفة أسف على شدة العقوبة وسقوط الوضع الاجتماعي ونزول مكانته عن الحاكم نفسه وعند الناس !

وتتألف الرسالة الجدية من جزأين متكاملين: قسم منثور وقسم شعري فيه قصيدة تتم المقصد وتستنفذ الطاقة النفسية المتوهجة.

وتخرج الرسالة الجدية كما خرجت الرسالة الهزلية إلى يخدم قضية الرسالة، وهو تطويل يستعرض فيه ابن زيدون ثانية معارفه اللغوية والأدبية والفقهية والتاريخية وغير ذلك هما أخرت به ثقافته الواسعة، ويوظف ذلك كله في سياق الرسالة.

وينهي ابن زيدون رسالته بقصيدة تشفع النثر بنظم وتجمع بين نوعي الأدب، وتعرض من مواهبه ما يلفت إليه النظر، ويدعو إلى المجازاة الطيبة بالرضا والقبول.

2. الرسالة الهزلية:

جاءت الرسالة طريفة جمعت بين أفانين التهكم وضروب المعرفة، وساق فيهما طائفة من الأمثال والأبيات المنشورة من الشعر وذكر فيها الكثير من الأحداث والأعلام وأسماء الرجال، كما استطاعت الرسالة أن تبلغ ما تريد من السحرية بمنافسه ابن عبدوس

على رغم تكلفها والتزام السجع والصناعة فيها، وقد تصل السخرية فيها أحيانًا إلى حد سلاطة اللسان فيبعد عما يقتضيه التهكم من رقة ودقيق تورية، ولهذا فهي تتصف بالانفعال القوي الصريح المعبر عن سخط ابن زيدون وألمه من منافسه الذي لعب بقلب ولعبت هي به.

الرسالة تتصل بحياة الشاعر العاطفية واشتملت على من حب ومنافسه...[1]

[1]: درجاب عكاوي، ابن زيدون الوزير الشاعر، ص57-58.

المبحث الثالث: الرسالة الهزلية نموذجا.

الرسالة الهزلية:

أما بعد:

أيها المُصاب بعقله، المُوَرّط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العُجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب.

وأنك راسلتني مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خُلتي لما قُرعت دونه ُأنوف أشكالك، مرسلاً خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إلي، وتَخلُفُ بعدها علي.

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل

ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك، وملّتك إذ لم تغر عليك، فإنها أعذرت في السفارة لك، وما قصرت في النيابة عنك. زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه، قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال، حتى خلتَ أن يوسف –عليه السلام– حاسَنَك فغضضتَ منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه، والنّطف عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا في طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن جماعتك، والضحاك استدعى مسالمتك.[1]

وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك، وشيرين قد نافست بوران فيك، وبلقيس غايرت الزباء عليك، وأن مالك بن نويرة إنما ردف لك، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك، وكُليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك، وجساساً إنما قتله بأنفتك، ومهلهلاً إنما طلب ثأره بهمتك، والسموءل إنما وفى عن عهدك، والأحنف إنما احتبى في ُبردك، وحاتماً إنما جاد

[1]: خليل ابن أبيك الصفوي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، المكتبة المصرية، 1969، ص25-27.

بوفرك، ولقي الأضياف ببشرك، وزيد بن مهلهل إنما ركب بفخذيك، والسُّليك ابن السلكة إنما عدا على رجليك، وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنة بيديك، وقيس بن زهير إنما استعان بدهائك، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك وسحبان إنما تكلم بلسانك، وعمرو ابن الأهتم إنما سحر ببيانك، وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك، والحَملات بين عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك، وأن احتيال هرم لعلقمة وعامر حتى رضيا كان ذاك عن إشارتك، وجوابه لعمر – وقد سأله عن أيهما كان يُنفّر – وقع عن إرادتك، وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك، والمهلب أوهَنَ شوكة الأزارقة بأيدك، وفرق ذات بينهم بكيدك، وأن هرمس أعطى بلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطاليس ما نقل عنك، وبطليموس سوى الاسطرلاب بتدبيرك، وصور الكُرة على تقديرك، وأبقراط علم العلل والأمراض بلُطف حدسك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حسك، وكلاهما قلّدك في العلاج، وسألك عن المزاج، واستوصفك تركيب الأعضاء، واستشارك في الداء والدواء، وأنك نهجت لأبي معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء، وأعطيت النظام أصلاً أدرك به الحقائق، وجعلت للكندي رسماً استخرج به الدقائق، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار والأنقار توليدك وابتداعك، وأن عبد الحميد ابن يحي باري أقلامك، وسهل بن هارون مُدون كلامك، وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مستفتيك، وأنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين، وحد الماهية، وبين الكيفية والكمية، وناظر في الجوهر والعَرَض، وميز الصحة من المرض، وفك المعمّى.[1]

وفصل بين الاسم والمسمى، وصرف وقسم، وعدّل وقوّم، وصنف الأسماء والأفعال، وبوب الظرف والحال، وبنى وأعرب، ونفى وتعجب، ووصل وقطع، وثنّى وجمع، وأظهر وأضمر، واستفهم وأخبر، وأهمل وقيد، وأرسل وأسند، وبحث ونظر، وتصفح الأديان، ورجح بين مذهبي ماني وغيلان، وأشار بذبح الجعد، وقتْل بشار بن برد، وأنك لو شئت خرقت العادات، وخالفت المعهودات، فأحلت البحار عذبة، وأعدت السّلام

[1]: علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون ورسائله، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص35.

رطبة، ونقلت غداً فصار أمساً، وزدت في العناصر فكانت خمساً، وأنك المقول فيه: «كل الصيد في جوف الفرا»

وليس على ا بمستنكر أن يجمع العالم في واحد والمعني بقول أبي تمام :

فلو صَورتَ نفسك لم تزدها   على ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول أبي الطيب:

ذُكرَ الأنام لنا فكان قصيدةً   كنتَ البديع الفرد من أبياتها

فكدَمَتْ في غير مَكْدَم   واستسمنتْ ذا ورم

ونفختْ في غير ضَرَم، ولم تجد لرمح مهزاً، ولا لشفرة محزاً، بل رضيتْ من الغنيمة بالإياب، وتمنت الرجوع بخفي حنين لأني قلتُ:

لقد هان من بالت عليه الثعالب.

وأنشدتُ: على أنها الأيام قد صرن كلها عجائبَ، حتى ليس فيها عجائبُ ونخرتُ وكفرتُ، وعبستُ وبسرتُ، وأبدأتُ وأعدتُ، وأبرقتُ وأرعدتُ

«هممتُ ولم أفعل وكدت وليتني».[1]

ولولا أن للجوار ذمة، وللضيافة حرمة، لكان الجواب في قذال الدّمستْق، والنعل حاضرةٌ إن عادت العقارب، والعقوبة ممكنة إن أصرّ المذنب.

وهبها لم تلاحظك بعينٍ كليلة عن عيوبك، ماؤها حبيبها، حسن فيها من تَوَد، وكانت إنما حَلّتك بحُلاك، ووسمتْكَ بسيماك، ولم تُعرك شهادة، ولا تكلّفتْ لك زيادة، بل صَدَقَتْ سن بكرها فيما ذكرته عنك، ووضعت الهناء مواضع النّقَب بما نسبته إليك، ولم تكن كاذبةً فيما أثنت به عليك، فالمُعيديٌّ تَسمع به خير من أن تراه.

[1]: جمال الدين بن نباتة المصري، في شرح رسالة ابن زيدون، دار الفكر الجامعي، 676 – 767هـ، ص15.

هجين القذال، أرعنُ السّبال، طويل العنق والعلاوة، مفرط الحُمق والغباوة، جافي الطبع، سيء الجابة والسمع، بغيض الهيئة، سخيف الذهاب والجيئة، ظاهر الوسواس، منتنُ الأنفاس، كثيرُ المعايب، مشهور المثالب، كلامك تمتمة، وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة.

كيف رأيتَ لؤمَكَ لكرمي كفاء، وضعتك لشرفي وفاء ! وأنى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطير تقع على أُلّافها ! وهلا علمتَ أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرتَ أن المؤمن والكافر لا يتقاربان، وقلتَ: الخبيث والطيب لا يستويان، وتمثلتَ :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عَمرَكَ ا كيف يلتقيان

وذكرتَ أني علق لا يباع فيمن زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغَرض لا يصيبه إلا مَن أجاد، ما أحسَبُكَ إلا كنتَ قد تهيأتَ للتهنئة، وترشحت للتّرفئة، أولى لك ! ولولا أن جُرحَ العَجماء جُبار للقيت من الكواعب ما لاقى يسار، فما همّ إلا بِدُون ما هممتَ به، ولا تعرّض إلا لأيسر ما تعرضت.[1]

ما كنتُ لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور بعد الجواد، فإنما يتيمم من لم يجد ماء، ويرعى الهشيم من عدم الجميم، ويركب الصعب من لا ذلول له، ولعلك إنما غرك مَن علمتَ صبوتي إليه، وشهدتَ مساعفتي له من أقمار العصر، وريحان المصر، الذين هم الكواكب علوّ همم، والرياضُ طيب شيم.

وإن كنتَ إنما بلغتَ قعر تابوتك، وتجافيتَ عن بعض قوتك، وعطرت أردانك، وجررت هميانك، واختلت في مشيتك، وحذفت فضول لحيتك، وأصلحتَ شاربك، ومططت حاجبك، ورفعتَ خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاءَ الاكتنان فيهم، وطمعاً في الاعتداد منهم، فظننت عجزاً، وأخطأت استك الحفرة. وا ِ لو كساك مُحَرّقٌ البُردين، وحلّتكَ ماريةُ بالقرطين، وقلّدك عمرو الصمصامة، وحماك الحارث على النعامة، ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك، ولا سترتُ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك. وهبكَ ساميتهم

---

[1]: جمال الدين بن نباتة المصري، ص17.

في ذروة المجد والحسب، وجاريتهم في غاية الظّرف والأدب، ألستَ تأوي إلى بيت قعيدته لَكاع، إذ كلهم عَزَب خالي الذراع !

وأين مَن أنفردُ به ممن لا أغلبُ عليه إلا على الأقل الأخس منه !

وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة، والشهوة الوافرة، والنفْس المصروفة إليّ، واللذة الموقوفة عليّ وبين آخر قد نضب غديره، ونزحت بيره، وذهب نشاطه، ولم يبقَ إلا ضُراطه!

وهل يجتمع لي فيك إلا الحَشَف وسوء الكيلة، ويقترنُ عليّ بك إلا الغُدّة والموت في بيت سلولية!

تعالى ا يا سَلم بن عمرو أذلّ الحرص أعناق الرجال.

ما كان أخلقكَ بأن تقدرَ بذَرعكَ، وتربع على ظُلعك، ولا تكن براقش الدالة على أهلها، وعنْزَ السوء المستثيرة لحتفها، فما أراك.[1]

إلا سَقَطَ العَشاء بك على سرحان، وبك لا بظبي أعفر، أعذرتُ إن أغنيتُ شيئاً، وأسمعتُ لو ناديت حياً.

إن العصا قُرعتْ لذي الحلم والشيءُ تحقره وقد ينمى

وإن بادرتَ بالندامة، ورجعتَ على نفسك بالملامة، كنتَ قد اشتريتَ العافية لكَ بالعافية منك، وإن قلتَ: «جعجَعة بلا طحن» و «رُب صَلَف تحت الراعدة »، وأنشدتَ:

لا يؤيسنّك من مُخدّرة قولٌ تُغلظه وإن جرحا

قَعُدتَ لما نُهيتَ عنه، وراجعتَ ما استَعفيتَ منه، بعثتُ مَن يُزعجك إلى الخضراء دَفْعاً، ويستحثك نحوها وكزاً وصفعاً.

---

[1]: أبو بكر جمال الدين محمد بن شمس الدين بن محمد بن شرف الدين، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، 1986، ص16-24.

فإذا صرتَ إليها عبثَ أكّاروها بك، وتسلط نواطيرها عليك، فمن قرعة مُعوجة تٌقوم في قفاك، ومن فُجله مُنتنه يُرمى بها تحت خُصاك، ذلك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك.

فمَن جهلت نفسُه قدره رأى غيرُه منه ما لا يَرى.[1]

ذكر منشأ الرسالة:

هو الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد ا بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي الكاتب الشاعر المشهور، ولد بقرطبة سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وكان من أبناء الفقهاء المتعينين واشتغل بالأدب، وفحص عن نوادره، ونقب عن دقائقه إلى أن برع وبلغ من صناعتي النظم والنثر المبلغ الطائل، وانقطع إلى أبي الوليد بن جهور ملوك الطوائف المتغلبين على الأندلس، فحف عليه وتمكن من دولته، واشتهر ذكره، وعظم قدره واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الأندلس. فأعجب به القوم، وتمنوا ميله إليهم لبراعته، وحسن سيرته، واتفق أن ابن جهور نقم عليه أمرا فحسبه، واستعطف ابن زيدون برسائل عجيبة وقصائد بديعة فلم تنجح، فهرب واتصل بعياد بن محمد صاحب إشبيلية الملقب بالمغتضد، فتلقاه بالقبول والإكرام، وولاة وزارته وفرض إليه أمور مملكته، وكان حسن التدبير، نام الفضل، متحببا إلى الناس، فصيح المنطق جدا حكى ابن بسام في كتاب الذخيرة.[2] عن بعض وزراء إشبيلية قال: عهدي بأبي الوليد بن زيدون قائما على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طباقتهم، نما سمعته يجيب أحدا بما أجاب به غيره، لسعة ميدانه، وحضور جنانه.

ولم يزل عند عباد وعند ابنه المعتمد على ا قائم الجاه، وأقر الحرمة إلى أن توفي بإشبيلية سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

---

[1]: المرجع نفسه، ص25.

[2]: أبي الحسن علي بن بسام، كتاب الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص392.

وقد ذكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين، وأجروا نبذا كثيرة من أخباره وفضائله، ووقفت على ديوان شعره وكثير من ترسله ونظمه عند النقاد أجود من نكره، وكان يسمى بحتري المغرب، لحسن ديباجة لفظه، ووضوح معانيه.[1]

فأما نثره فإنه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب وجل أشعاره المتقدمين والمتأخرين، إلى أن قيل: إن رسائله أشبه بالمنظوم من المنثور، وعلى ذلك فقد دل بها على إطلاع معجب، واستحضار معجز، وقد اكتفيت منها بذكر هذه الرسالة المشروحة.

فمن شعره من قصيدة يخاطب بها ابن جهور [أيام سجنه].

ما جالَ بعدك لحظي في سنَا القمر — إلا ذَكرتُك ذكْر العينِ بِالأثَر

ولا استطالْتُ ذماء اللّيل من أسف — إلا على ليلةٍ سرتْ مع القصر

يا ليتَ ذاك السواد الجون متصلٌ — لو استعار سواد القلبِ والبصر

فَهمتُ معنَى الْهوى في لحظ طَرفك لي — إن الحوار لمفْهوم من الْحور

وقال من قصيدة في بني جهور:

بنى جهورٍ أحرقْتُم بجفائِكُم — جناني، ولكن المدائح تعبقُ

تعدونَني كالعنبرِ الورد إنّما — تطيب لكم أنفاسه حين يحرقُ[2]

ذكر سبب إنشاء هذه الرسالة:

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الغرب الأموية المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل، من بني عبد الملك بن مروان، تسمى ولادة بن

[1]: جمال الدين بن نباتة المصري، مسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، 676 – 767هـ، ص17.

[2]: جمال الدين بن نباتة المصري، مرجع سابق الذكر، ص19.

المتكفى با محمد بن المتظهر با عبد الرحمن، ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله، وتغلب ملوك الطوائف عليه، في خبر يطول شرحه.

وصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم، ويتعشقها الكبراء منهم، وكانت ذات خلق جميل، وأدب عض، ونوادر عجيبة ونظم جيد فمنه ما كتبت به إلى ابن زيدون، وهي راضية عنه تقول:

ترقّب إذَا جن الظَلام زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكْتَم لِلسر

ومنْك ما لو كان بالبدر لم يبر وبالليل لم يظْلم بالنَجم لم يسر

وقولها فيه وهي عليه غضى:

إن ابن زيدون على فضله يلج بي شتماً ولا ذَنْب لِي

يلحظُني شزْرا إذَا جئْتَ كأنَما جئْتَ لأحضي علي

وتعني علاما له عليا.[1]

وكان سبب قولها فيه هذا الشعر، أنه اتهمها بمواصلة الوزير أبي عامر بن عبدوس وكان يلقب بالفاز، فقال فيه وفيها:

عيرتُمونَا بأن قَد صار يخْلفُنَا فيمن نُحب وما في ذَاك من عار

أكْلُ شَهي أصبنَا من أطَايبه وما تَبقى صفَحنَا عنْه للفَار

ومما يناسبها ما كتبت به على كمها [وقيل تاجها].

أنَا وا أصلح للمعالي وأمشي مشْيتي وأتيه تَيها

وأمكن عاشقي من لم تُغْرى وأُعطي قُبلتي من يشْتَهيها

---

[1]: أنظر الذخيرة 377 وما بعدها، وملحقات الديوان 793، ص300.

ومما ينسب إليها، وهو عندي كثير على شعر امرأة.[1]

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها، والميل إليها، وأكثر غزل شعره فيها وفي اسمها، ثم إن الوزير أبا عامر بن عبدوس أيضا هام بها وكلف بعشرتها، وكان قصدهم الطرف والأدب، وكانت ولادة كثيرة العبث به، ولها معه نوادر ظريفة ومرت يوما بداره، وهو جالس وأمامه بركة تتولد من مواصى وأقذار، وحوله جماعة من أصحابه، فوقفت عليه وقالت يا أبا عامر:

أَنْتَ الخَصيب وهذه مصر فَتَدفقا فكُلا كما بحر

فلم يجز جوابا، فمضت، وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس.

وكان أول أمر ما معه، والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة أن ابن عبدوس [لما سمع بها] أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه، وتذكر لها محاسنه ومنافيه وترغبها والتفرد بمواصلته، فبلغ ابن زيدون ذلك، فأنشأ بقول هذه الرسالة البديعة [جوابا له عن لسانها]، تتضمن غرائب من نسب أبي عامر والتهم به والعجاء له، وجعلها جوابا له على لسان ولادة وأرسلها إليها عقيب رجوع المرأة، فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة إلى أن انتقل ابن زيدون إلى إشبيلية ومات بها، حمدهم ا بحمرته والمسلمين أجمعين وغفر لنا ولهم يمنه وكرمه.[2]

---

[1]: المرجع نفسه، ص301.

[2]: المرجع نفسه، ص303.

ذكر الرسالة وشرحها:

فأولها:

1. أما بعد أيها، المصاب بعقلة، المورط بجملة:

أما: حرف يقتضي مضى أحد الشيئين، ويبدأ به الكلام، وبعدها هنا تستعمل في الترتيب، وتقدير «أما بعد»: مهما يكن بعده، وهي كلمة يبتدأ بها كثير الخطباء والحكماء والكتاب علامهم، في خطبهم المحيرة ورسائلهم المحررة، كأنهم يستعدون بما الإصفاء كما يقولون، ولذاك فخر بما سبحان فقال:

وقد علمت قيس بن عبلان أنني إذا قلت أما بعد أني خطيبها؟

وكثيرا مت تأتي عقب «الحمد » وتسمى هناك فصل الخطاب لأنها فصلت بين الكلام الأول ولاثاني، وتأتي عقب البسملة، تأتي النداء كأنها عقب الفكر والروية، وأول من قالها داود عليه السلام، وقيل إنما فصل الخطاب المذكور في الكتاب العزيز وقبل أول من قالها قيس بن ساعدة والأول أصبح، وإنما قس أول من خطب بها في العرب وكتبها أول الكتاب على ما ذكر.

المصاب: اسم لمن نزلت به نائبة مصيبة، وأصاب السهم، إذا وصل إلى المرمي بالصواب، فالمصيبة أصلها في الرمية، ثم اختص بالنائبة.

العقل: المعرفة المستعملة في تحري النفع، وتجنب الضرر، والأصل اللغة والمتكلمين في اشتقاقه ومعناه أقوال كثيرة، قيل: اشتق من عقل الناقة، إذ شد وطبقها مع ذارعيها بحبل يمنعها من الشدود فكأنه يمنع الإنسان مما يميل إليه من الهوى، ومن عقل الناقة سميت الديه عقلا، لأنها تعقل بغناء المقتول، أو لأنها تحبس الدم وقيل اشتق من العقل،

وهو الملجأ، يقال: عقل الوعل، وإذا التجأ إلى الحيل الذيمتعه، فكأن الإنسان يلتجئ إليه في أمواله.[1]

2. البين سقطه الفاحش غلطة:

السقط: ما لا يرضى، ومن سقط المناع، رديئة، وسقط القول خطؤه، وسقط الرجل في يده إذا فعل ما يندم عليه، وقال الأنقش: أسقط، وهو غير مستعمل، والأصل السقوط، وهو طرح السيئ من العالي إلى المنخفض.

الفاحش: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال، ومنه الفاحشة، الفعلة القبيحة، سميت فاحشة وصارت علما عليها.

الغلط: الخروج عن الصواب نطقا أو فعلا، نقول العرب: غلط وغلت بالتاء، رغم قوم أنهما لفتان، ورغم قوم أن «غلط» إنما يقال في النطق و«غلت» إنما يقول في الحساب وا أعلم بالصواب.

3. العاثر في ذيل اغتراره، والأعمى عن الشمس نضارة:

العاثر: السقوط وما قاربه، والاغترار: الغفلة، واستعارة، الذيل والعتال للقافل حسنة، والفقر مناسبة لما فيلها ما بعدها، والعمى يقال في افتقاد البصر، ويقال فيه، أعمى، وعم، وعمى البصيرة أشد ولذلك له يعد ا تعالى افتقاد البصر عمى في حين افتقاد البصيرة، حيث قال تعالى: **أَفَلَم يسِرِ وا في الْأرض فَتكُونَ لَهم قُلُوب يعقلُونَ بِها أو آذَانٌ يسمعونَ بِها ۖ فَإِنها لَا تعمى الْأَبصار ولَٰكن تعمى الْقُلُوب التي في الصدور**،[2] وشمس النهار هاهنا، كنا يتعن الصواب الواضع الذي تركه هذا المكتوب إليه، وعمي عنه متى تعرض للذم، أو كتابة عن مقدار هذه المرأة التي هي كالشمس حتى طلب منها لما لال يصل إليه.

---

[1]: الذخيرة في محاسن الجزيرة، ص105.

[2]: سورة الحج، الآية 102.

4. الساقط سقوط الذباب على الشّراب:

الذباب: في اللغة يقع على هذه المعروف من العشرات وعلى النحل والرتابير ونحوها، قال الجاحظ: ومن الدليل على أن أجناس النحل والرتابير وما أشبهها كلها ذباب ما جاء في الحديث النبي صلى ا عليه وسلم أنه قال: «**كل ذباب النار إلا النحلة**».[1]

والذباب هاهنا المعروف وسمى ذباب العين ذبابا لشبهه به، أو التطاير شعاعه طيران الذباب، وبه يضرب المثل في الوقوع على التراب وغرض الذباب ما حلا، ولشرهه عليه يقع على كل مانع سواء كان حلوا أو غيره وفي كتاب "كليلة ودمنة" ومن لم يرضى بما يكفيه كان كذباب الذي لا يرضى حتى يطلب الماء السائل من أذات فتضربه بأذاتها فتقتله.

5. المتهاتف تهافت الفراش في الشهاب:

المتهاتف: الترامي مع خفة وطيران، يقال من هَفَتَ وتهافت ومنه قولهم وردت هفيلة من الناس الذين أقحمتهم السنة والفراش نوع من الذباب رفيق الجسد، ومنه قبل لكل عظم رفيق فراشه وقيل فراشه العقل لرفتها، أو ليشبهها بالفراش الطائر.

والشهاب الشعلة من النار من ذلك قيل للسواد المختلط بالبياض شبهه تشبيها بالسواد المختلط بالذباب والفراش معروف بإلقاء نفسه في النار، ولذلك قيل في المثل، ما هم إلا فراش طمع، والفلاسفة تزعم أن الحيوان يجذبه النورية كالفراش الطائر بالليل، وما لطف جسمه يطرح نفسه في النار فيحترق، وغير ذلك مما يصادق في الليل بالشهاب من الغزلات والوحش والطير والسمك، إذا قرب منها السراج في الزوارق ويزعمون أن النور هذا العالم. ومعنى السجع أن المكتوب إليه من جملة وتعرضه لما يؤذيه بمنزلة الفراش والذباب الواقع فيها يهلكه من غير إشعار أنه هالك.[2]

---

[1]: يوسف أبو زيد الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ص303.

[2]: يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ص304.

6. فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب:

قوله: فإن صلة لقوله أما بعد، ولاية من اقتضائها الفاء الرد الكلام بعضه على بعض، والعجب: ما يعجب الإنسان من نفسه، أي يستحسنه، والأصل العجب، كأنه يتعجب من حسن ما يجد، والكذب ضد الصدق، قال في المقال والفعال وينسبه أيضا إلى نفس القول والفعل، فيقال: فعله صادقه، وفعله كاذبة، ومعنى المثل، أن المعجب من نفسه بحالة يظن أنه قد بلغ بها الغاية، وامتيازيا لفضل، وليس الأمر كذلك، فكان عجبه بنفسه خبل له ما لا صحة فيه، فكذبه والمعرفة إدراك الشيء، بتدبير الأمره، وهو أخص من العلم، فيقال فلان يعرف ا ، ولا يقال: «يعلم ا » متعد إلى مفعول واحد، لما كان معرفة البشر تعالى هي يتدبر آثاره دون إدراك ذاته ويقال: بعلم كذا، ولا يقال: يعرف بما كانت المعرفة تشتمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكير، وأصله من عرفت كذابا أي أصين عرفه، أي رائحته، والمعنى أن معرفة الإنسان مقداره حتى لا يتعدى أطواره أصوب، وهو يؤيد قوله «العبد أكذب».

وهذا مثلان جيدان، الأول ينسب إلى أن أكتم به صفي، والثاني مأخوذ من قوله «لن يهلك أمرؤ عرف قدر نفسه».[1]

7. وأنّك راسلتي مشهد يا من صلي ما صفرت منه أيدي أمثالك:

الصلة: قرب الشيء وبلوغه، ويستعمل في الأعيان والمعاني، ومنه سمت العطية صلة، وقيل: فلان متصل بفلان، وإذا كانت بينهما شبيه أو مصاهدة، وللصلة هنا تحتمل الوجهين، وإما المودة وتقوم مقام العطاء، أو القرب ويقوم مقام الاتصال.[2]

وصغر الإناء إذا خلا حتى يسمح له صفيرة حلوة، ثم صار متعارف في كل حال من الآنية وغيرها. وقيل: صفرت اليد إذا خلت، وسمى خلو العروق بين الغداء، صفرا،

[1]: نفح الطيب، ص102.

[2]: الذخيرة في محاسن الجزرية، ص28.

وكانت العرب تزعم أن ذلك حية في البطن تسمى الصفر، حتى جاء في الحديث «لا صفر».

والمعنى: أنك تتعرض من صلتي لما تخلو منه يد مرادك.

8. متصديا من خلتي لما فرغت دونه أنوق أشكالك:

التصدي: المقابلة، مأخوذة من مقابلة الصدى، أي الصوت الراجع من الجبل، **والخلة:** المودة إما لأنها تتخلل للنفس، أي تتوسطها، فإن الخلل الفرجة بين الشيئين، إما لفرط الحاجة إليها، يقال: خالته مخالت، فهو خليل، وسمى ا تعالى بنبيه إبراهيم خليلا، لافتقاره إلى ربه تعالى. ولقرع صوت ضرب شيء على شيء.

والمعنى أنك تخطب من صورتي ملا يصلح له أشكالك، فدفعوا عنه، وضربت أنوفهم، إما حقيقة، أو مجازا لكون أنهم ردوا فحصل بالضرب لأنه محل الشم والكبر، مع أن المثل للعرب، يخاطب به الخاطب الكفئ، فيقول: هو الفعل لا يقرع أنفه، والأصل فحل الإبل إذا ضرب وجهه عن الناقة التي لا يريدون نتاجها منه، وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين بلغه زواج النبي صلى ا عليه وسلم ابنته أم حبيبته فقال «ذاك الفحل لا يقرع أنفه».

9. مرسلا خليلتك مرتاده، مستعملا عشيقتك قوارة:

خليلتك: صاحبة مودتك، أو «قليلتك» زوجتك وفي كلاما المعيشة ذم للمرسل، لا لخليله أو الخليلة التي هي محل الغيرة على الرجل لا تقار على مثله حتى تمشي، بينه وبين النساء، والمرتاد، طالب الكلأ وسمى به الطالب مطلقا، وأصل الرود التردد في طلب الشيء يرفق وباعتباره الرفض، قيل: رادت المرأة في مشيتها فهي رواد.[1]

[1]: المرجع نفسه، ص26.

وقاد الشيء فنقاد له أي خضع، وقود، شدد للكثرة، واستعمل فيمن يجمع بين الشخصين حراما، لأنه أصعب للانقياد، وكانت القوادة في العرب تكن أم حكيم، ولما قال ابن أبي ربيعة في وصف القوادة:

فأنها طبة عارقة تخاط الجد مرارا باللعب

تغلظ القول إذ لانت بها وتراخى عند سورات الغضب.

قال له ابن أبي عتيق يا بن أخي، إن الناس لمحتاجون إلى خليفة مثل قوادتهم ليسودهم، ومنه كان يقال في المثل «أقود من ظلمة»، قيل إنها امرأة كانت تقول: إذا مت فاحرقوني وتربوا برمادي الكتب المرسلة بين المتعاشقين، فإنهم يجتمعون، وقيل: إنها الظلمة من الليل، فإنها تستر وتعين على الاجتماع وأنشد بعضهم:

«فالشمس نمامة والليل قواد».[1]

10. كاذبا نفسك ستنزل عنها إلى، وتخاف بعدها على:

يعني أنك وعدت نفسك أن تترك الاتصال بهذه المرأة التي هي خليلتك، وتتعرض عنها بحصول، وهذا أمر لا يقع، فأنت كاذب نفسك في الوعد، وعدت هذه المرأة التي هي عندك بمنزلة نفسك، أنك إذا ظفرت تركتها وأطلق سراحها لرقبتها في البعد عنك، فهي تسكن في هذا الأمر سعى المجتهد، وهذا لا يتم، فقد كذبتها فيما وعدت.

والخلق: ما جاء بعد الشيء، ومنه سمي الخليفة، ويقال بالتحريك للمدح مثل: خاف صالع، وبالسكون للذم مثل قوله: «في] خاف كجلد الأجرب».[2]

[1]: جمال الدين بن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، 676 – 767هـ، ص25.

[2]: المرجع نفسه، ص26.

11. ولا شك أنها قتلتك إذا لم تضن بك، وملتك إذ لم تقر عليك:

يعني المرأة التي راسلتها، أيقضك لأنها لم تبخل بك على من تصحبه دونها وألقى شدة البعض، يقال: قلا يقيله ويقلو، فمن جعله من الراوي فهو من القلو أفي الرمى يقال: قلت الناقة براكبها قلوا، وقلوت بالقلم، فكأن المقلو الذي يقذفه القاب من بعضه فلا يقبله، ومن جعل، من اليأتى، فمن قليت السويق وغيره على المقلاة وفي الحديث «أخبر تثله» والهاء للسكت والضن، البخل بالشيء النفيس ولهذا قيل علاق مضغه، ومنه قوله تعالى: وما **هو على الغيب بضنين** .[1] أي يخيل على ما يوحى إليه ووقوف "بضنين" أي منهم.

12. فإنها أعذرت في السفارة لك، وما قصرت في النيابة عنان:

يعني بلغت عذر الاجتهاد في الصلة بيني وبينك، يقال أعذر الإنسان إذا أتى ما أصربه مقدار، وأعذر من أيذر، والسفارة المشي في الصلح وكأنها كشف ما لهم من الحال بين المتباينين، أم سفرة ومنه قيل السفر لأنه يكشف الأخلاق والأصل من سفار الصبح إذا أضاء.

13. زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه:

المروءة كمال المرء، كما أن الرجولية كمال الرجل والإنسانية قمام الإنسان واللفظ مستعار من لفظ الشيء من الغم إذ طرحه ولفظت الرحى الدقيق، والمعنى نفسه الكلام وسره، وكأنه مأخوذ من معاناة المرء إطلاعه على فحوى الكلام، ولأهل البيان والمتكلمين في تمثيل الألفاظ المعاني فصول مستحسنة، قال القومسن الفيلسوف الألفاظ والمعاني من آية العقل ولحسن تابع للعقل والطبيعة، وقال آخر واللفظ جسم، والمعنى روح، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بصبغه، ويقوف بقوته، فإذا سلم المعنى واختل اللفظ كان نقصا في الكلام كما يعرض لبعض الأجسام من العور والعرج وما أشبه ذلك من غير أن نصهب الروح،[2] وكذلك إن صعب المعنى وأجيد لفظه كان اللفظ من ذلك أو فر حظا،

---

[1]: سورة التكوير، الآية 24.

[2]: جمال الدين بن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، 676 – 767هـ، ص27.

كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا يجد معنى يحتل إلا من جهة اللفظ وجربه فيه غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل المعنى كله فقد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لا ينقص من شخصه شيء رأى العين إلا أنه ميت لا ينفع به، وكذلك إن اختل اللفظ حملة وتلاشى لم يصح له معنى لأن لا نجد روحا في غير جسم ألبته.

14. والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه:

الإنسانية تماما الإنسان كما تقدم ومما عربه أبو زرعه البغدادي من كلام ارسطا طاليس قوله: الإنسانية متحرك إلا أفقه بالطبع، دائر على مركزه إلا أن يكون مخلوطا بأخلاق بهيمية، ومن رفع عصاه عن نفسه، وبسبب هواه في مرعاه، وكان لين لم يكن لإتباع الشهوات الرديئة فقد خرج من أفقه، وصار أذل من البهيمة لسوء إيثاره والاسم ما عرف به الشيء، وأصله من السمو، ومنه رفع ذكر المسعى فعرف وسيأتي ذكر عند الفصل بين الاسم والمسمى، والجسم يقال لكل ذي طول وعرض وعمق، ولما لا يثبت له لون كالماء والهواء ولا تخرج أجزاء الجسم عن كونها أجزاء، وإن يقطع وجرى، وهو أعم من الجسد لأن الجسد لا يقال إلا لما له لون، والهيولى المادة المديرة للصورة وهو أصل الشيء كالفضة والدرهم.

15. قاطعة أنك انفردت بالجمال واستأثرت بالكمال واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال:

قطعت الأمر: إذ فصلته من الشك ومنه الدليل القطعى، ولقطع الفصل فيها يدرك بالأبصارى لأجسام، وفيها يدرك بالبصيرة كالأمور العقلية والكمال حصول غايات العرض في الشيء محسوس أو معقولا[1] وقوله تعالى: **فَمن لَم يجِد فَصيام ثَلاثَة أيامٍ في الْحج وسبعة إِذَا رجعتم ۗ تلْك عشرةٌ كَاملَةٌ ۗ** ،[2] ليست لإعلام بأن الثلاثة والسبعة عشرة،

[1]: المرجع نفسه، ص30.

[2]: سورة البقرة، الآية 196.

وإنما ليبين أنه محصول صيام العشرة يحصل كمال الصوم القائم مقام الهوى والخلال جمع خلة وهي الطريقة الحسنة، مأخوذة من الخلة وهي الطريق في الرمل.

16. حتى خلت أن يوسف عليه السلام:

يعني باراك في الحسن فأخجلته وأصل الفص النبضان في الطرق ويستفار لما سواه، وبدأ يذكر الحسن فيها سرده من تواريخ ذوي الأصناف الشريفة، لأنه أول ما يعجب المرأة من الرجل، ثم ذكر الحال والهمم والعلوم ونحو ذلك.[1]

يوسف عليه السلام:

والمراد هنا يوسف عليه السلام وجاء في الحديث عن النبي صلى ا عليه وسلم «ذاك الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق با إبراهيم» وبه يضرب المثل في الحسن ويستدل على حسنة بكتاب ا تعالى والحديث والآثار.

فمن الكتاب قوله عز وجل في ذكر امرأة العزيز والسنوة اللاتي لمنها على حبه «واعتدت لمن متكأ...» إلى آخر الآية قال المفسرون المتكأ التمرق الذي يُتَكأ عليه وقيل المتكأ هو الطعام، والأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك، فقد أعدت له وسادة فسمى الطعام متكأ على الاستعارة.

ومن الآثار قولهم، إنه كان إذا مشى في أزقة مصر يتلألأ وجهه على الجدران كما يتلألأ نور الشمس من الماء عليها وقولهم، إنه ورث الحسن من جدته سارة التي هم الملك، بأخذها من إبراهيم وزاد عليها وقصته مشهورة.

ويروى أنه عاش مائة سنة، وتوفي بمصر، ودفن في نهر القيرم الذي أحكم صنعته البديعة، ومن كلامه، قيل له: ما صنع بك اخوتك فقال: لا تسألوني عن ضيع ربي.[2]

---

[1]: الذخيرة في محاسن الجزيرة، ص125.

[2]: المرجع نفسه، ص94/9.

خاتمة

خاتمة:

وبعد توفيق من ا وصلنا إلى ختام عملنا هذا المتمثل في العنوان الرسالة النثرية والهزلية عند ابن زيدون، فمن خلال هذه الدراسة تبادرت في أذهاننا بعض نتائج التي حصرناها فيما يلي:

- ابن زيدون من أكبر الكتاب الذين كتبوا في الرسالة متأثرا في رسائله بأساليب النثر العربي في المشرق المتمثلة في الجاحظ وابن العميد والقاضي الفاضل.
- رسائل ابن زيدون تحكي جانبا من حياته فالهزلية تحكي حياته العاطفية، الجدية تحكي حياته السياسية.
- لم تحقق رسائله طلباته ومبتغاه، فالجدية لم تخرجه من الأسر، والهزلية لم تجمعه بولادة.
- أبان ابن زيدون على ثقافته الواسعة من خلال رسائله من خلال استخدامه لأسماء الشعراء والكتاب وتوظيف بعض الأبيات، واقتباساته من القرآن الكريم.
- إن ابن زيدون في الرسالة الهزلية تسخر من منافسيه عبدوس دليل على أن حبه لولادة ابن المشكفي حقيقي.

وفي الأخير ما يسعنا القول إلا أن ابن زيدون من أعظم الكتاب الذين أنجبتهم الأندلس، فكان أسلوبه خير أسلوب وبلاغته خير بلاغة وأدبه خير أدب.

قائمة
المصادر والمراجع

قائمة المصادر المراجع:

- **القرآن الكريم.**

1. ابن العذري، بيان المغرب.

2. ابن خاقان، قلائد العيقان.

3. ابن نباتة، الرسالة الهزلية في كتاب مطبوع بعنوان سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ومن طبعها دار الفكر بالقاهرة.

4. أبو بكر جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، 1986.

5. أبي الحسن علي بن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول.

6. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة.

7. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، عن جزء مخطوط من المقتبس.

8. جمال الدين بن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، 676م، 767هـ.

9. حسن حاد الحسيني، ابن زيدون، عصره، حياته، أدبه، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، 1955.

10. خليل ابن أبي الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، المكتبة المصرية، ط1996.

11. رحاب عكاوي، ابن زيدون الوزير والشاعر، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع.

12. سامي مكي الغاني، دراسة في الأدب الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1.

قائمة المصادر والمراجع:

13. شرح وتحقيق علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون ورسائله، نهضة مصر، دار الطبعة والنشر والتوزيع.

14. صبور عبد النور، المعجم الأدبي.

15. عبد المالك مرتاض، في فن المقامة في الأدب العربي، الطبعة 3، الدار التونسية، 1988.

16. عدنان محمد غزال، مصادر دراسة ابن زيدون، الكويت، 2004.

17. علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.

18. علي عبد العظيم، ابن زيدون، عصره، حياته، أدبه، مكتبة الأنجو المصرية، القاهرة، 1955.

19. علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون ورسائله، نهضة مصر للطباعة والنشر.

20. علي عبد العظيم، نوابغ الفكر العربي، رقم 05، دار المعارف، القاهرة، ط117، 1990.

21. فؤاد البستاني، الروائع ابن زيدون والرسالتان ومقاطع شتى.

22. قدامة بن جعفر، نقط اللفظ.

23. محمد رضوان، الدابة في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

24. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، نهج عمارة يوسف، البليدة، دار المدار الثقافية والطباعة والنشر والتوزيع، ط1.

25. محمد مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنون)، بيروت، 1980.

26. مصطفى الشكعة، القراءة المستأنية لنثر ابن زيدون، لمجلة الكتاب العراقيين.

27. مصطفى الشكعة، قراءة مستأنية لنثر ابن زيدون ومجلة الثقافة الدمشقية.

28. يوسف أبو زيد، الذخيرة في محاسن الجزيرة، الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع.

29. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين، بيروت، لبنان، ط1، 1909.

الملحق

حياة ابن زيدون (394 – 463هـ/1003 – 1070م):

هو أبو الوليد أحمد بن عبد ا بن أحمد بن غالب بن زيدون ينتهي نسبه إلى بني مخزوم من بطون قريش، ولد بقرطبة سنة 294هـ في بيت من بيوت العلم والأدب، فأبوه من جلة فقهاء قرطبة وجده لأمه من العلماء الذين تسلموا القضاء وأحكام الشرطة والسوق بقرطبة.

نشأته:

انحدر الشاعر من أسرة كريمة مرموقة المكان، وقد فقد أباه وهو في الحادية عشر من عمره، فكفله جده لأمه، وكان عالما جليلا، تقلد في مناسب الإدارة الرئيسية من شرطة وقضاء، وكان شديد الصرامة في أحكامه، ولهذا أنه كان حازما في تربية بسيطة، وأن هذا الحزم جنبه مزالق السقوط التي يتعرض لها الأبناء من ذوي التزام.

وكان لوالد الشاعر أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة والعلم الغزير ومثل هؤلاء الرجال الأعلام جديرون أن يراعوا حقوق صديقهم الراحل في ابنه العزيز وأن يوالده بالرعاية والتشقيف.

ولهذا تهيأ لشاعرنا عوامل الشيوخ من ثروة مناسبة، وعقول حائبة حازمة، وبيئة فنانة، وعصر مزدهر بالمدينة والحضارة، حافل فأفدن العلماء والأدباء، هذا فضلا عن الموهبة العظرية والاستعداد الخصب والوراثة الصالحة والتوجيه السديد.

ثقافته:

ليس أمامنا ثبت بالعلوم التي درسها الشاعر فكونت ثقافته وبوأته مكانه الرفيع، ولكننا نعرف «أن مناهج الدراسة الأولى في التعليم عند الأندلسيين كانت تتناول كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف ورواية الشعر، أما التعليم العالي عندهم فيقوم على تفسير القرآن الكريم ودراسة علوم الدين والفلسفة، وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية»، ومن الطبيعي أن شاعرنا سلك هذه السبل،

والدارس الآثار فيرى كثيرا من التعبيرات القرآنية وانتماء من الأحاديث النبوية كما يرى فيها وإدراكا للطب والعلوم الفلسفية، كما يرى إلماما بأصول الفقه وعلوم الدين، أما التاريخ فقد كان دارسا له مولعا به يستشهد دائما، حوادثه، ورجع دائما إلى عبره، وقد ألفا فيه كتابا لم يبقى لدينا منه إلا بعض النصوص وأما علوم اللغة وفنون الآداب فهي مبدائه الرحب ومجاله الفسيح، ولهذا حق له أن يقول:

ونَجدني علْم تَوالتْ فُنُونُه كما يتوالى في النّظام سخاب

أساتذته:

نعتقد أن ثقافة الشاعر الواسعة العميقة كانت نتيجة لتلميذه على أساتذة عديدين، ولكن المصادر الباقية بين أيدينا لم تذكر أسماء هؤلاء الأساتذة إلا واحدا استعرض له يعد قليل، ولكننا نرجح أن أستاذه الأول كان أباه، وهو أمر طبيعي، فإن القرائن ترجح أن الشاعر كان وحيده فمن الطبيعي أن يعني به كل العناية ويهتم به كل الاهتمام، وبخاصة إذا علمنا أن هذه الوالد أستاذا لبعض الأدباء، كما نرجح أن جده لأمه كان من أساتذته الأولين.

ومن آثار الشاعر الخالدة رسالة كتبها إلى أستاذه أبي بكر مسلم وقد بحثنا عن هذا الأستاذ وانتهى بنا البحث إلى أنه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى يقول ابن شكوال في ترجمته «إنه كان رجلا جيد الدين، حسن المقل، لين العريكة، واسع الخلق مع نبله وبراعته وتقدمه في علوم العربية واللغة، رواية للشعر وكتب الآداب، كان لتلاميذه كالأب الشقيق، والأخ الشقيق، ومجتهدا في تبصرهم متلطفا في ذلك نسبا ورعا، وافر الحظ من علم الحظ من علم الاعتقادات، سالكا فيها طريق أهل السنة، يقصر اللسان عن وصف أحواله ولد سنة 376 وتوفي سنة 432 وكان الشاعر به ظلت وثيقة حتى قارب الأربعين، ولهذا فزع إليه في محنته عقب فراره من سجنه، وأن الشاعر كان تلميذ الأديبة.

وفاته:

لم يترك الحساد صلة أو وسيلة لكي يبعد والشاعر عن المعتمج الذي استولى على قرطبه + مسقط رأس الشاعر، سنة 462هـ، فحاولها أن ينعثوا عليه فرحته بعودته إليها، بعد فراق طال أحدى وعشرين سنة، كان الشاعر في الثامن والستين من عمره حين أقبل إليها، تملؤه الذكريات ويستند به الشوق إلى معق التمائم وملاعب الطفولة.

لقد زينوا للأمير المعتمد أن يبعث بالشاعر إلى إشبيلية ليطفئ نيران فتنه تسعرت فيها، ولي الشاعر على تكره منه، فقد كان يعاني من بقية وعك كان متألما منه، وأتعبه السفر والحرة على مفارقة قرطبة، فلقي وجه ربه بدار هجرته إشبيلية صدر رجب سنة 462هـ بحضور ولده الوزير أبي بكر الذي كان استخلفه بقرطبة نائبا عنه في الكتابة، إذ سرعان وبر أولئك الحساد مؤامرة أخرى لإرساله إلى موضع أبيه ليعلو لهم الجو، وكأن الأقدار رغبت في تقريب الوالد من ولده وتنتهي حين ذاك الزمان حياة أديب كبير ما زال الناس حتى يومنا هذا يرددون أشعاره العذبة.

الفهرس

الفهرس